على أبواب البُلوغ

أخطار المراهقة

تأليف

د.أنيس هاشم

عضو جمعية الطب النفسي الأمريكية

تقديم

د. أشرف حسن

أستاذ الطب النفسي

الكتاب:أخطار المراهقة

الكاتب:د.أنيس هاشم

تقديم : د. أشرف حسن

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.com http://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

هاشم ، د.أنيس

أخطار المراهقة / تأليف: د.أنيس هاشم ، تقديم : د. أشرف حسن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١١٦ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٧٩٩ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٨٣٠ / ٢٠١٨

أخطار المراهقة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

عُرف سن المراهقة بأنّه فترة من العمر تبدأ من عمر خمس عشرة سنة وصولاً إلى واحد وعشرين سنة، وتتميّز هذه الفترة بأنّها من أصعب الفترات التي تمر على الإنسان، كونها مُتقلبة ومصحوبة بالعديد من التغيّرات الجسميّة والعقليّة والعاطفيّة والاجتماعيّة، بالإضافة إلى كونها أول اختبار للشخص في حياته، ويشار إلى أنّ مستقبل الأمم وحضاراتها تتأثر بشكلٍ كبير بمراهقة أفرادها، وتعتري هذه المرحلة الكثير من المخاطر التي يتوجب على الوالدين أن يكونوا متنبهين لها، وأن يحاولوا قدر الإمكان السيطرة عليها، ونجد أن أهم مخاطر سن المراهقة، وطرق التغلب عليها.

إن أبرز خطرمن مخاطر سن المراهقة هو وجود فجوة بين المراهق وعائلته فعند انتهاء مرحلة الطفولة، وتبدأ المراهقة قد تحدث فجوة بين المراهق وعائلته، وذلك حسب ما أثبتته الدراسات النفسية ، وهذا ما يؤدي إلى صعوبة التحدث معهم وحل مشكلاتهم في المنزل، وهذا ما يجعلهم يميلون إلى العزلة والانطوائيّة عن الآخرين.

ومن أهم المشاكل التي من الممكن أن يتعرض لها الشباب الإناث والذكور في هذه السن هو اضطرابات الشخصيّة، وهذا ما يجعلهم يكونون مجموعات مع أشخاص بعيدين عن الأسرة والعائلة، مما يؤدي إلى دخولهم في حالة من التخبط وعدم الاستقرار على شخصيّة محددة طوال هذه المرحلة الحرجة.

كما يُصبح المراهق في هذه المرحلة حساساً بشكل كبير وزائد، ويدخل في حالة من العصبيّة والعناد دون مبرر، بالإضافة إلى أنّه ينظر إلى كل ما يقوم به بأنّه صائب وصحيح، وأنّ غيره هو المخطئ.

أما عن حماية الشباب من خطر سن المراهقة فهو الجلوس معهم كأنهم أصدقاء، والبعد عند الحديث معهم عن التصنع والمجاملة، بالإضافة إلى الابتعاد عن التوبيخ والتسفيه ... وأيضاً فتح المجال أمام المراهق لشق طريقه بنفسه وذلك حتى لو كان هذا الطريق خاطئاً، فالخطأ طريق لتعلّم الصواب في بعض الأحيان.. كذلك مُشاركة المراهقين في الحوارات العلميّة التي تتناول مواضيع مشابهة لمشاكل المراهق، والتي تحتوي على حل لعلاجه، ويفيد ذلك في تنمية الثقة بالنفس، والتحدث بكل صراحة.

ويجب مراعاة اختيار الوقت الملائم من قِبل الأهل لبدء الحوار مع المراهقين، وتجنّب التحدث معهم وهم مشغولون أو لديهم التزامات معينة. وأيضاً جعل الحوار الحقيقي قاعدة للنقاش بعيداً عن التنافر والصراع، والحرص على تفهم وجهة نظر الأبناء المراهقين لإشعارهم بأنّ أمورهم

مُعترف بها.. وأيضاً ابتعاد الأهل عن توجيه الأسئلة ذات مضمون الإجابة بالقبول أو النفي، أو الأسئلة غير الواضحة، وفتح مجال لتعبير المراهق عن نفسه بالصورة التي يراها مناسبة، والسماح للمراهقين بالتعبير عن أفكارهم بكل راحة، وتوجيههم نحو البرامج التي تُكرس مفاهيم التسامح والتعايش مع المُحيطين، وأيضاً تقوية الدافع الديني لديهم من خلال تأدية الفرائض الدينيّة، ومصاحبة الصالحين. ونشر المحبة، والعدل، والأمان، والاستقلاليّة في البيئة الموجودين فيها، حيث إنّ فقدان هذه الأمور يؤدي إلى تفكك الأسرة، والفشل الدراسي، وتجنّب لغة التهديد والعقاب، ومحاولة العدل بين الأبناء قدر الإمكان.

كما يجب تفهم احتياجات نمو ابنك الجسماني والعقلي والوجداني ودخوله لمرحلة جديدة من حياته، فإن كثيراً من احتياجاته تتغير وتختلف؛ ومن حقه إذن أن تستوعب هذه الاحتياجات وتتفهمها وتقبلها أيضاً حتى لو كنت لا تتفق معها في بعض الأوقات.

وما بين يديك كتاب قيم في ذاته هام في معلوماته يزخر بالكثير من المعلومات العلمية التي تجعلك تتعامل مع أبنائك والمراهقين المُقربين منك .

د. أشرف حسن

الفصل الأول

الغريزة الجنسية في الطفولة

لو واجهت إنساناً عادياً بالسؤال التالي: في أي سن يبدأ الإحساس، أو الشعور الجنسي عند المرء، لأجابك، وبدون أدنى تردد: عند البلوغ – وهو العمر الذي تبدأ فيه مقدرة الإنسان – ذكراً كان أم أنثى – على إنجاب الأطفال.

وإني أتخيل الآن تجهم وجه صديقك ذاك الذي يعتقد أن الحياة الجنسية هي صنو البلوغ عندما تخبره أن الطفل، منذ أشهره الأولى، يملك نوعاً ما من الغريزة الجنسية، وقد سبق لي أن اختبرت مثل تجهم الوجه هذا، الذي يدل على عدم الاقتناع، والشك في ما أقول.

سيقول لك الناس لو جادلتهم في الموضوع: ماذا تقول؟ هل يمكن للطفل الصغير البريء، الملاك الطاهر، أن يكون له غريزة جنسية؟ وسيؤكدون أن كلامك مجرد تخيلات وأوهام.

إن الغريزة الجنسية، مثل باقي الغرائز التي أودعها الله جسم الإنسان ونفسه منذ بدء العالم، ومثل غرائز التنفس والأكل وغيرهما، تولد مع الإنسان، وتسري في أعصابه سريان الدم في شرايينه. ومنذ الشهر الثالث

من حياة الطفل، نستطيع أن نتلمس، ولو بصورة واهية، أثر هذه الغريزة في الطفل، البريء الطاهر. وحتى لو لم تظهر هذه الغريزة، فهي موجودة دون شك وستظهر في يوم لاحق آخر، في شكل من الأشكال الساذجة.

طبعاً إنها ليست أكثر من غريزة عمياء، لا أثر لها البتة في طهارة الطفل أو براءته، ولا خوف منها، بحيث لا حاجة للبحث عن طريقة لمعالجتها. وهي عبارة عن إحساسات غامضة مبهمة تنبعث في الطفل، بين الحين والآخر، نتيجة بعض الاحتكاكات يأتي عفوياً، دون تصميم ولا إرادة واعية. وليست لهذه الإحساسات من أهمية في عهد الطفولة. وتنحصر أهميتها في مدى تأثيرها على حياة الإنسان بعد أن يقطع مرحلة الطفولة. ذلك أن للغريزة الجنسية، ولو في أبسط مظاهرها، أثراً في توجيه المرء، من حيث حياته الجنسية، يبقى موجوداً على مرِّ الأيام.

ومن هنا كانت الغريزة الجنسية أثناء عهد الطفولة موضع اهتمام بعض العلماء الأجانب، إذ تتبعوا مراحلها في الطفولة، وآثارها إلى ما بعد الطفولة، وقد وجد أولئك العلماء، بعد اختبارات طويلة، أن أول مظاهر هذه الغريزة تأخذ، عند الأطفال، شكلاً في غاية البساطة. فالطفل يسر كثيراً عند لمس أي شيء ناعم الملمس، أو دافئ، فالدفء والنعومة يبعثان في جسم الطفل ارتياحاً ذات ارتباط وثيق مع غريزته المكتومة، ولهذا نرى الأطفال وهم من أشهرهم الأولى من الحياة، يلامسون "بلوزات" أمهاتهم الحريرية، الناعمة والدافئة، بلذة، تتجلى في مناغاتهم وأصواتهم العذبة الملائكية.

واستجابة الطفل لإغراء الحرير هو نفسه الإغراء الذي يخضع له الشباب البالغون، عندما تتطور غريزتهم الجنسية وتتخلى عن سذاجتها. ولذلك نرى النساء اللواتي يقصدن أن يوقعن الرجال في مصيدة إغرائهن يتعمدن لبس الحرير أو غيره من الأقمشة الناعمة، لإثارة الارتياح واللذة عند الرجال. وليس بين الرجال من لا يوافق معي على أن جسم المرأة يزداد جمالاً وجاذبية، وبالتالي إغراء وفتنة، عندما يتستر بقطعة من الحرير الناعم، أكثر مما لو كان عليه قماش قطني أو صوفي، أو غيرها من الأقمشة التي لا تقل عن الحرير نعومة.

والفراء أيضاً من الملبوسات التي تجذب الطفل بسهولة وسرعة، تماماً مثلما لا يفشل معطف الفرد الفاخر في إغراء الشاب البالغ. وبسبب هذا الانجذاب للفراء نرى الأطفال يألفون للقطط وينجذبون إليها أكثر من انجذابهم إلى الكلاب، بالرغم من مودة الكلاب للصغار وذكائها في لعبها معهم. إذ أن فرو القط أنعم وأدفأ من فرو الكلب، والكلب يعجز عن أن يبعث في غريزة الطفل اللذة التي تبعثها فيه فراء القطط.

وأغرب من ذلك أنه بين كل عشرة أطفال – تسعة على الأقل يفضلون القطط السوداء على باقي الألوان، وبعد القطط السوداء يأتي دور البيضاء، ثم المرقعة فالشقراء.

وقد أجرى العالم الجنسي وليم فيلدنج بحوثاً خاصة عن نفر من الشباب البالغين، فوجد أن اللون الأسود يفوق أي لون آخر من حيث

المقدرة على التأثير في الإحساسات الجنسية. وبعد السواد يأتي البياض، ثم الاحمرار. وقد يكون لكل لون من هذه الألوان السبب الخاص الذي جعلته مفضلاً ومؤثراً على الجنس، ولكن مما لا شك فيه أن اتفاق هذه الألوان مع الألوان المفضلة عند الطفولة يشير بوضوح إلى الغريزة الصامتة عند الطفل.

وأجرى هذا العالم أيضاً عدداً من الاختبارات ليتبين أثر الغريزة الجنسية في الإنسان، من بعد أن يتخطى مرحلة الطفولة. وكانت أولى هذه الاختبارات مع نفسه؛ فقد كتب في أحد كتبه يقول:

"إني لا أزال أذكر – كأي شاب آخر – حوادث فردية متقطعة سررت بها وأنا في سن الطفولة. ومن هذه الحوادث أنني كنت أسرَّ كثيراً عندما أمسك بثوب والدتي الحريري، أو عندما كنت ألعب بمعطف عمتي الفرو. وأذكر أنني كنت أحب أن ألعب على الأرض، تحت المائدة، لاحتك بأقدام زائراتنا اللواتي كنَّ يجلسن حول المائدة!. واليوم، إذ أتتبع أثر هذه الذكريات، أجد أن غريزتي أكثر ما تتهيج عند مشاهدة السيقان العارية، التي هي بالنسبة إلي، أفضل أجزاء جسم المرأة وأكثرها إغراء".

أما الاختبارات الأخرى التي أجراها الدكتور فيلدنج في هذا الموضوع فهي كثيرة، سنكتفي هنا بإيراد ثلاثة منها:

١– كان الطفل "م" في أقصى طفولته، خاضعاً لتلك التأثيرات التي نتعرض لها كلنا، والتي ذكرتها قبل قليل. ولما كان في السنة الأولى كان

والداه يلاحظان عليه تأثره بلمس الحرير، حتى أن ذلك التأثر كان يبدو بوضوح على عضوه التناسلي تماماً كما يطرأ على العضو التناسلي عند البالغ لما يقع تحت تأثير إغراءٍ جنسي– ومع أن هذه الحالة نادرة في الأطفال الذين في عمر "م"، إلاَّ أنها ليست نادرة في أبناء السنة الثانية أو الثالثة من العمر.

وبينما كان "م" ينمو، وهو بعد طفلاً، كان يبدي اهتماماً زائداً بالبنات الصغيرات، خاصة الجميلات منهن. وكثيراً ما كان يلمس وجوههن أو يمسك بأيديهن أو يسرح يديه على أجسامهن، كلما كانت الفرصة تسنح له. أما نظراته إليهن فكانت ناطقة بما في نفسه من شهوة ساذجة غير ناضجة.

ولكن القدر لم يكن رءوفاً به، فقد مرض بالسلّ وهو ابن ثلاث سنين. ولما كان معروفاً لدى الأطباء بأن لمرضى السلّ رغبات جنسية أقوى من الأصحاء، وأن سعيهم وراء المتعة الجسمانية يكون أكثر سرعة من غيرهم (مثل إقبالهم على الطعام بنهم بالغ) اتضح لنا سبب النمو السريع في غريزة "م" الجنسية، حتى أن كل الذين كانوا يحيطون به أو يتعاملون معه كانوا يلاحظون عليه هذه الحيوية الجنسية الزائدة. وكثيراً ما كان يتعب ممرضات المستشفى اللواتي كن يترددّن عليه للمعاينة لتودده الزائد وسعيه الساذج لملاعبة وجوههن وشعرهن. وقد أكدت لي إحدى الممرضات أنه – وكان يومها قد بلغ العاشرة – كان يرفض "أن يذهب إلى النوم إلا بعد

أن ينال منها قبلة. وقالت أن قبلاته كان ناضجة ودافئة كقبلات شاب بالغ. وكانت الممرضات يتنبأن له بمستقبل "دون جواني" حافل بالمغامرات!

إلا أن المرض أثر على تصرفاته لما بلغ سن النضوج؛ فاتجه، وهو في الخامسة عشرة اتجاهاً دينياً عميقاً. والتدين أمر مألوف في هذه السن لمن هم في ألم المرض أو المأساة. ووصل سن الثامنة عشر دون أن يكون قد أجرى أي اتصال جنسي، بالمعنى المعروف، مع فتاة ما، مع أنه كان محبوباً ومقبولاً عند الفتيات مثلما كن محبوبات عنده. ولم يقطع هذا الانكماش العذري إلا لما وقع تحت إغراء امرأة تكبره بأكثر من عشر سنوات، إذ قادته إلى ميدان اللذة الجسمانية، وقدمت له جسدها لينال منه ما يشاء في اللذة، وليعوّض عما فاته.

وقد تزوج "م" منذ سنوات من صديقة له تصغره عدة سنوات. وتؤكد زوجته إخلاصه لها، ومقدرته الجنسية معها. إلا أنه يشكو لأطبائه بأنه، لقلّة اختباراته الجنسية ولخجل امرأته، يشعر بركود علاقاتها الجنسية، وأنه عاد يتمنى لو يرجع إلى ما كان عليه في الماضي، من حيوية زائدة. ولم يعرف أن تلك الحيوية كانت نتيجة مرضه الذي شفي منه الآن. وقد أدّى به هذا الركود إلى احتقار العلاقات الجنسية، وإلى الاكتفاء بمشاهدة الجمال، وعدم التأثر به جسمانياً.

٢- أما الاختبار الثاني فبطله الطفل "ب".

وكان "ب" شديد الاختلاف عن غيره من الأطفال. كان ميّالاً إلى الوحدة والانفراد على نفسه كسولاً قليل اللعب. وبالرغم من أنه كان يُعجب لمرأى الفتيات الصغيرات الجميلات إلا أنه لم يكن يجري وراءهن. وظل كذلك حتى دخل مرحلة البلوغ، حينما بدّل طباعه، وأصبحت ملاحقة صديقاته تأخذ معظم وقته. وقد استغلّ جمال طلعته وأناقته في جذب الفتيات إليه.

ولم تكن تلك الصديقات من ذوات الأخلاق الحسنة، ولم يكن يعنى بجمالهن بمقدار ما كان يهتم بإشباع رغباته الجنسية معهن. وتجسم الحب عنده في اتصال جسدي مع المرأة، أي امرأة كانت.

وأخيراً تعرف إلى فتاة، فأحبها ثم تزوجها، وقد مضى على زواجهما ست سنوات، وحتى الآن لم ينجبا أطفالاً، ولا يعتقد الأطباء أنهما سيستطيعان ذلك، وحياتهما الزوجية حياة محطمة راكدة؛ لذلك فإن علاقتهما ليست أكثر من اتصالات جنسية في الليل، وقتال مستمر في النهار. وقد أدى تمادي "ب" في هذه الاتصالات إلى انحلال جسمه وضعف كيانه، بحيث أصبح المرض يبدو على جسمه المحطم، وخبت من عينه أنوار الحياة، ومستقبله مظلم لا يبشر بأي اطمئنان.

ويلاحظ من ذلك أن الغريزة الجنسية في الأطفال لا تشكل خطراً، ولكن الخطر يكمن في الظروف التي تكتنف مستقبل الطفل بعد أن يبلغ، إذ هي تستطيع أن تسحبه من انعزاليته وترميه في حمأة الشهوة.

٣- والحالة الثالثة، حالة "ج"،

قضية شاذة بعكس قضيتي "م"، و"ب". و"ج" فتاة عرفتها منذ الصغر، ويجدر بي هنا أن أذكر أن الطفلات لا تظهر عليهن مظاهر الغريزة الجنسية المبكرة كالأطفال الذكور، وإن ظهرت هذه الغريزة فهي هادئة صامتة قليلة الأثر، والحالة الوحيدة للغريزة الجنسية في الطفلات هي حب الظهور والرغبة في جذب أنظار الذكور. وكلنا يعرف محاولة الفتيات الصغيرات عادة، وهن في الترام أو في أي محل عام، أن يثرن انتباه الذكور الذين أمامهن، مهما كان عمرهم وعمرهن، إما بتذبيل الأعين وبكثرة التلفت أو بالحركات التي تسترعي الانتباه. ومع أن الصغيرات لا يدركن لماذا يفعلن ذلك، إلا أنهن يتابعن العمل دائماً. والحقيقة أن هذه التصرفات ليست إلا مظهراً ناطقاً للغريزة الجنسية، غير الواعية، الكامنة فيهن منذ الطفولة.

كانت "ج" وحيدة أهلها، ولم يكن في تصرفاتها ما يشير إلى غريزتها إلّا اهتمامها الشديد بالرجال ذوي اللحى أو الشوارب. فقد كانت تلتذ كثيراً عندما تمتد يديها إلى شارب أو لحية للعبث بها وشد شعيراتها. وكان تمريغ وجهها بأي وجهٍ غير محلوق الذقن من أكثر المتع لذة عندها.

وفي أثناء نموّها بدا عليها مظهر تفضيل صحبة الصبيان على البنات، وحتى لما كانت تلعب مع هؤلاء الذكور كانت تتصرف كفتى، وتحاول جهدها إلاّ تظهر كفتاة أمامهم. وكانت دائمة التذمر لأنها ولدت فتاة، وتتمنى لو كانت ذكراً. ولم تكن ترضى عن معاملة رفاقها لها كفتاة. وبالرغم من تأنيب والدتها ومعلماتها، كانت تهمل أمر ملابسها إهمالاً كبيراً، وقلما كانت تهتم لأن تلبس فستاناً جديداً أو نظيفاً أو أنيقاً.

وبدا عليها مظهر آخر من مظاهر الغريزة الصامتة، وهو حب الرقص. والرقص في حالات كثيرة – وإن لم يكن دائماً – رغبة ناتجة عن الغريزة الجنسية الكامنة في الإنسان. ولقد سمت درجات الرقص وأنواعه، إلا أن جوهره ومصدره منحصر في غريزة الإنسان.

ولما بلغت، طرأ على "ج" تحول كبير في حياتها. تركت تلك الأمور الصبيانية وتبدلت إلى فتاة شديدة الاهتمام بنفسها وبملابسها وشكلها ومظهرها أمام الناس وتصرّفاتها في المجتمع. وعندما كانت تجلس مع الرجال كانت تسعى لأن تثبت مركزها أمامهم وتثير اهتمامهم بحركاتها وكلامها الكثير الذي لا معنى له.

ولم نكن نستغرب مظهر حب الظهور هذا في "ج"، فهو صنعة مألوفة عادة عند الفتيات الوحيدات، فالوحدة في البيت تشجع على إبراز نوعٍ من الكبرياء الفارغة، التي تقود صاحبتها إلى أن تصرّ على البروز والظهور ولو على حساب سمعتها والذوق العام.

وأوضح علامات حب الظهور عند "ج" رغبتها في أن تظهر دائماً كواسطة العقد: أي جوهر الاهتمام ومركز الانتباه ومحط الأنظار. وقد نتج عن هذا ميل إلى الفخامة في الملبس والتأنق، ميل إلى أن تظل دائماً تحت تسليط الأنوار. وإن رأت أن الأنوار تتسلط على غيرها تقودها غيرتها العمياء إلى الاعتداء على هذا "الغير" ومحاولة نزع الشهرة لنفسها. وكثيراً ما كان والدها يؤنبانها، على تعدياتها على صديقاتها الطفلات لأنهن أجمل منها أو لأنهن ينلن من الاهتمام ما تعجز هي عن نواله.

ولما نمت في بلوغها النمو الطبيعي اتجه حب الظهور الساذج فيها إلى محاولات مستمرة للإغراء، فكان إغراء الرجال همها الأكبر. ولم يكن هذا الإغراء وليد رغبة جنسية جامحة، كما هو عند معظم الفتيات، ولكنه وليد رغبتها في أن تتسلط وتستأثر باهتمام الناس عامة والرجال خاصة. وتحول حب الظهور إلى مرض نفسي- إلى مرض حب النفس، "أو عشق الذات"- وتكررت بذلك حوادثها ومغامراتها الغرامية مع عدد كبير من الشباب بحيث أصبحت مشكلة صعبة الحل لوالديها. ولم تكن صداقاتها مع الشباب تدوم أكثر من أسبوع واحد. إذ كانت تلك صداقة، فناؤها بعد أيام معدودة، لتنصرف إلى إيقاع شاب جديد بحبائل جمالها وجاذبيتها.

إنها الآن في الخامسة والعشرين من عمرها، وهي جميلة المنظر شديد الجاذبية. ولكن هذا الجمال والجاذبية لا يستطيعان إغراء الرجال طويلاً. إذ ما أن يتعرف عليها الشاب جيداً إلا ويكتشف سيئاتها – يكتشف غرورها ومطامحها البعيدة وأهواءها السريعة التقلب وتكبّرها وعشقها لذاتها

واستعدادها للتهاون في مصلحة وعواطف فتاها مقابل تحقيق مصالحها وتنفيذ رغبات عواطفها هي.

إن كل هذه الصفات تشكّل مأساة في حياة "ج". ولو كانت هذه الصفات ناتجة عن جموح جنسي فيها لهان الأمر. إلا أن المسألة هي رغبة في حب الظهور، رغبة أنانية في الاستئثار بالإعجاب والمحبة على حساب غيرها. ومن هنا كان كل شيء بالنسبة لها أمراً بسيطاً وهي لا تنظر إلى علاقاتها مع الشباب بأكثر من مغامرات عابرة، وقتية، تدوم أياماً ثم تنتهي لتبدأ مغامرة جديدة.

ومستقبل فتاة كهذه مستقبل قاتم، مثل مستقبل "ب" في الاختبار السالف الذكر. فقد تزوجت "ج" منذ مدة قصيرة، من رجل غير مناسب لها أبداً. فزوجها عالم مشهور واسع الذكاء، عريق التفكير، وهو شديد العاطفة، ينظر إلى امرأته نظرة إعجاب ورغبة في الحصول على المتعة الجنسية والعاطفية التي ينشدها. إلا أن "ج" باردة جنسياً، خامدة العاطفة، وهي لا تهتم بالأمور الجنسية إلا من خلال اهتمامها بنفسها وسعيها للظهور. وقلما تكلف نفسها في ابتداع كلمات غرام أو طرق حب تخفي برودها. ولم تتزوج من هذا الرجل إلا لأنه غني، وغناه قادر على إرضاء نهمها للألبسة الفخمة والمجوهرات الثمينة.

من هذه الاختبارات الواقعية الثلاثة يظهر أن الغريزة الجنسية موجودة عند الأطفال، ولكنها لا تشكل خطراً إلا عندما تؤثر على

تصرفات الإنسان الجنسية وتوجهه في اتجاهات خاصة شاذة، بعد أن يصل مرحلة البلوغ الجنسي.

وهنا يثير المرء هذا السؤال: إلى أي حدّ على الآباء والأمهات العناية بمظاهر الغريزة الجنسية عند أبنائهم؟

إنني أعتقد، بالنسبة إلى الاختبارات ونظريات عشرات العلماء الأجانب الذين صرفوا السنين الطويلة في بحث هذا الموضوع، أعتقد أن هذه المظاهر يجب ألا تشغل بال الوالدين؛ فهي مسألة طبيعية، كعشرات المسائل الطبيعية الأخرى. وكل شيء فيها يتوقف على مستقبل الطفل بعد نضوجه – في سن المراهقة. ويجب أن يدرك الوالدان أن محاولة كبت هذه الغريزة والعمل على استئصالها تضرّ في الطفل تماماً كالمحاولة في تشجيعها وتنميتها والإكثار منها.

فالطريقة الفضلى لمعالجة مظاهر الغريزة الجنسية في الطفل، إذن، هي أن نحاول أن نتجاهلها قدر الإمكان، أو على الأقل أن نتظاهر أمام الطفل بأننا نتجاهلها. فأنت، أيها الأب، وأيتها الأم، إن رأيتما طفلكما يتأثر من احتكاك ما، تأثراً جنسياً يلتذ له لا تخشيا عليه، ولا تظنا أن المسألة على أهمية بالغة تستوجب قلب الدنيا والإغراق في الخوف؛ إنها مسألة بسيطة، ولكن... ولا يعني هذا أنني أشجع الوالدين على تشجيع هذه الاحتكاكات وتأمينها أمام الطفل ليحصل له الالتذاذ الذي ينشده، ولكن عليهما ألاّ يحتقران الموضوع ولا يخافان منه.

وإني أنصح الوالدين بأن يدوّنا كل ما يشاهدانه من مثل هذه التصرفات في أطفالهما، وأن يحفظا ما يسجلان للمستقبل، إذ أن ذلك يفيدهما في تتبع حياة طفلهما الجنسية وملاحظة ما يطرأ عليه من تطورات وما يتخذ من اتجاهات.

وختاماً أذكر الآباء والأمهات أن عليهم أن يكونوا واقعيين، فإن غريزة الجنس في الطفل أمر واقعي طبيعي، فعلينا ألا نستنكره ولا نخشاه، إن الطفل يأكل وينام ويتنفس. ومع هذا لا يخشى والداه عليه من هذه الضروريات. فلماذا يخشيان من مظاهر غريزته الجنسية التي هي طبيعية كالأكل والنوم والتنفس؟

إن الإنسان يعرف الحب منذ أن يعرف الحياة، وهو يبدأ هذا الحب بحب أمه، ويظل حباً ساذجاً إلى أن يكبر ويتعرف على الحب الجنسي. إلا أن هذا الحب، وهو يعد في أبسط مظاهره، يبعث في الطفل وعياً جنسياً مبهماً. ويظهر هذا الوعي في تصرفات الطفل أمام والديه. لذلك على والديه أن يعرفا كيف يتصرفان أمامه، لأن بهذا التصرف يتأثر مستقبل الطفل إلى حد بعيد.

في الفصل الثاني سنتحدث عن كيفية مصارحة الأهل لابنهم الطفل بحقائق الحياة الجنسية. ولكننا هنا يجب أن نؤكد للآباء والأمهات أن الاهتمام بالجنس والحب يجب ألا يشجع من قبل الوالدين، إذ أن الكلام والنصيحة في هذه الأمور قد تضرّ أكثر مما تفيد إن كانت قبل أوانها.

والأهل عادة يشجعون الحب المبكر عند الطفل، خطأ، ودون أن يقصدوا ذلك. ويتم هنا التشجيع غير المقصود أثناء المزاح مع الطفل، والتحدث معه عن حبه لفلانة من صديقاته الطفلات، أو عن تزويجه من ابنة الجيران، وغير ذلك من مواضيع الهزل المعروفة. وهذا المزاح قد يضعف قيمة الحب في نظر الطفل ويجعله أمراً رخيصاً. ويعكرّ، وبالتالي، على الفكرة الممتازة التي يأخذها الطفل عن الحب بمشاهدة والديه يعيشان عيشة حب سعيدة وجميلة بحيث تعطيه تلك الحياة صورة حيَّة صحيحة عن الحب الزوجي المقدس. فمشاهدة الحب واختباره عند الأهل ترقق إحساسات الطفل وتلطف مشاعره. وما أسعد الطفل الذي يعيش في كنف عائلة حياتها شهر عسل مستمر دائم.

الفصل الثاني

المعرفة الجنسية لغير البالغين

إنه غريب جداً، كما هو أمر محزن أيضاً، أن نشاهد بين الآباء جهلاء كثيرين يصرّون، حتى في أعصر العلم هذه، على ترك أولادهم في جهل مطبق لأمور الحياة والجنس، وهي الأمور الأساسية البديهية في تربية الولد وتنشئته. وأسوأ من هذا الإغفال، اعتماد بعض الوالدين على الكذب على أبنائهم، عندما يسألونهم عن بعض الأمور الجنسية، وإعطائهم معلومات خاطئة بعيدة جداً عن واقع الحياة.

إن الحقيقة الكبرى في الوجود البشري – هي الفرق بين الجنسين، جسمانياً ونفسانياً، لا بد وأن تؤثر على الأبناء الصغار تأثيراً خاصاً، وتثير فيهم عشرات الأسئلة التي يكتمونها أحياناً، ويصارحون أهلهم بها أحياناً، حباً في الإجابة عليها. فالطفل العادي يسأل والديه دائماً أسئلة كثيرة متعلقة بالجنس والخليقة والولادة. وهذا أمر طبيعي مألوف وليس فيه ضرر أو خوف. ولكنه يصبح ذات ريبة لما يتحول اهتمام الطفل بالجنس إلى اهتمام عميق يأخذ عليه كل وقته، بحيث يصبح الجنس همّه الوحيد ومثار اهتمامه في كل وقت. فالعلاقات الجنسية، وإن كانت جزءاً من اهتمام

الطفل قبل أن يهتم بأشياء أخرى كثيرة في الوجود، يجب ألا تصبح موضع الاهتمام الوحيد.

وسيسأل الطفل والديه أسئلة كثيرة بخصوص الجنس، وعلى الوالدين ألا يهملا أمر الإجابة عليها، وألا يكذبا في إجابتهما. ويكفي جوابهما أن يكون بسيطاً، بحيث يلاقي القبول لدى الطفل والاقتناع به. إلا أن كثيراً من الوالدين يجيبون أبناءهم عندما يسألونهم السؤال التقليدي: "من أين ولدت أنا؟ أو من أين أتى أخي الصغير؟" يجيبونهم: "من السماء، فالسماء أرسلتك لنا وهي التي أرسلت أخاك أيضاً". وقد لا يقنع هذا الجواب الطفل فيعود للسؤال من جديد: "حسناً، ولكن كيف وصلتُ إلى هنا. وكيف قطعت المسافة بين بيتنا وبين السماء العالية؟" وكالعادة يأتي جواب الوالدين إما "الطير حملك إلينا في سل كبير" أو "الدكتور أحضرك إلى السرير في شنطته السوداء الكبيرة" أو "عثرنا عليك، لوحدك، تحت شجرة التوت، في الحديقة"..!

وقد أثارت هذه الأجوبة اهتمامي، فصممت على أن أقوم باختبار حسّي، لأكشف عن السبب الذي يلجأ به الوالدون إلى الكذب على أعزّ المخلوقات عليهم. وبعد أن واجهت عدداً كبيراً من الآباء والأمهات الذين اعترفوا بأن أجوبتهم على أسئلة أطفالهم بخصوص حقيقة الولادة، كانت من النوع الذي ذكرته، وجدت أن السبب الرئيسي لهذا الكذب هو اعتقاد الأهل بأن الأولاد أبرياء طاهرون، وأنهم أصغر من أن يسمعوا الحقيقية الجنسية، كما هي، من فم أهلهم. والأهل يعتقدون أن هؤلاء

الأبناء لا يقدرون على فهم هذه الحقائق، حتى ولو لم يمانع الآباء في شرحها لهم، وهم يعتقدون أيضاً أن الحقيقة الطبيعية العلمية قد تخدش براءة أبنائهم كما تخدش الشتائم العاهرة آذان العذارى. لذلك، على حد تعبيرهم، يلجأون إلى إخفاء الحقيقة عن هؤلاء الأبناء الأبرياء، وهم مقتنعون أنهم لا يكذبون على أبنائهم، بل يروون لهم أساطير وهمية.

أما ردّي على هذه المزاعم والحجج فهو أنه ما دام الطفل أصغر من أن يفهم هذه الحقائق، لماذا لا يُخبر بها كما هي، بعد تبسيط يلائم مستوى إدراكه؟ ألا يضمن ذلك الحديث الصريح أن براءة الطفل لن يخدش، وأن طهارته لن تنال؟ وهل ينسى الوالدون، أو هل هم يتجاهلون، أن الكذب يظل كذباً مهما اختلف لونه ونوعه؟

إن سألك ابنك أن تروي له قصة ورويت له أسطورة فأنت لن تجد من يمنعك عن ذلك، ولا من يعيب عليك ذلك، لأنك إنما تروي له ما يلذّ. ولكن إن سألك ذلك الابن حقيقة ما (والحقائق الجنسية أهم الحقائق البشرية) ولم تجبه بها، بل خدعته وراء أسطورة كاذبة، فأنت لا تكذب عليه فحسب، بل تؤلمه وتضرّ به. وأنت، بالتالي، تخون الأمانة العائلية العمياء التي يضعها الطفل في أبيه، والتي بسببها يتقدّم إليه بهذه الأسئلة التي تثير اهتمامه بين الحين والآخر.

ومَنْ قال أن الطفل، قبل أن يبلغ طور المقدرة الجنسية على الإخصاب، ليس له مقدرة على فهم حقائق الجنس؟ إن هذا غير صحيح

مطلقاً. فالطفل، منذ السنة الرابعة أو الخامسة من عمره، يصبح قادراً على فهم الحقائق الجوهرية لأمور الجنس الطبيعية، خاصة أن قدمت إلى أسماعه بشكل مبسّط، سهل النفاذ إلى عقله وإدراكه.

وللتدليل على قولي هذا سأحاول في الصفحات التالية أن أشرح ضرر هذه "الأساطير" التي يلجأ إليها الآباء والأمهات حينما يسألهم أبناؤهم عن طريقة مجيئهم إلى العالم.

إن الطفل يقتنع تماماً بجواب والديه بأنه أتى إلى هذا العالم بواسطة حقيبة الطبيب أو شجرة الحديقة أو طيور السماء؛ ولا يقبل أن يشك في هذا الكلام. ذلك أن للأطفال ثقة تامة مطلقة بكلام والديهم. ويرفضون أن يسعى إنسان ما لتكذيب ذلك الكلام، أو تعديله أو تصحيحه. ويظل هذا الكلام موثوقاً به إلى أن ينمو الطفل نمواً كافياً بحيث يستطيع بإدراكه أن يميز حقائق الأشياء، ولن يفهم الأمور المعقولة من الأمور الكاذبة. ومما يساعد الطفل على بلوغ هذه الدرجة اختباره البسيط، هو أصدقاؤه الذين يحيطون به. وعندما يعرف من هؤلاء الأصدقاء أموراً أخرى غير التي أخبره بها والده، وهي أمور تكون مغايرة تماماً لما قال الوالدان، تنكشف عليه الأكذوبة التي انطلت عليه مدة طويلة، وتتكسر أمام عينيه الثقة التي كان يوليها والديه. وبذلك يصبح الطفل يشك بكل كلام والديه، ولا يعود يثق بهما في أي موضوع آخر.

تكون الصدمة التي يصاب بها الطفل، حينما يكتشف أنه كان يعيش في كذبة حبكها له والده صدمة عنيفة، تقوده إلى أن يساءل نفسه عن السبب الذي من أجله اضطر والده إلى الكذب عليه في هذا الموضوع بالذات. وسيكون الجواب على هذا التساؤل – جواب الوالدين نفسيهما، أو الخادمة أو أصدقاء اللعب، "إن موضوع الجنس أمر خطير جداً، لا يجوز الكلام به أمام الصغار، ولا يجوز العناية بإلقاء الأسئلة عنه أو الإجابة عليها. فهو موضوع لا يبحث مطلقاً لخطورته وللعيب فيه". ومن هنا تنشأ عند الأطفال فكرة خطيرة، وهي أن الجنس أمر مخجل ودنيء، ومن العيب التكلم فيه. ويضطر الطفل، طوعاً أو دون إرادة، إلى أن يتكلم في هذا الموضوع دائماً – وكل ممنوع مرغوب – وحتى يتفادى الخجل يتكلم به بصوت خافت ومرتجف، وبشكل سري، على أترابه الصغار الذين لا يزيدونه معرفة، تحت شجيرات البستان – أو مع جنبات الطريق، بعيدين عن العيون والآذان، كأنهم يقترفون إثماً فظيعاً.

إن الخجل من المواضيع الجنسية مصدر عشرات العلل في مجتمعاتنا، فلا يكفي أن يكون الابن قد فقد الثقة بوالديه لأنهما كذبا عليه وموّها الحقائق بأساطير وهمية لم تعد تنطلي عليه اليوم مثلما كانت في الماضي، إذ هو يفقد الثقة أيضاً بالعلاقات الجنسية نفسها، فيعتبرها أمراً إدّاً ويحتقرها، وربما يظل هذا الاحتقار راسخاً في أعماق نفسه طول الحياة، مما يسبب له مشكلة نفسانية تصدم سعادته وتعكر له صفو أيامه، كما أن الحقد على الأبوين، الكاذبين بالنسبة إلى الطفل، قد ينمو ويزايد مدة طويلة..

ومعظم الأطباء النفسانيين في أميركا اليوم يعانون مشكلة إلحاح جمهور كبير من الأمهات اللواتي يأتين من وقت إلى آخر طالبين مساعدتهم أو استشاراتهم، للبحث عن مصدر عداء أبنائهن أو بناتهن لهن "الذين يتقلصون عنا ويبتعدون عن مجالستنا كأننا مرضى" كما يقول معظمهن. وقد اكتشف هؤلاء الأطباء أن معظم هذا العداء بين الأمهات وأبنائهن راجع إلى كذب الأمهات على أطفالهن منذ الصغر في أمر ما من أمور الجنس، واعتماد أسلوب الأساطير الخداعة في الإجابة على مشاكلهم. وعندما يكتشف الطفل أمر الكذبة يبدأ في احتقار والدته والابتعاد عنها والنفور من آرائها، بحيث تنقطع حلقة مهمة من حلقات البيت العائلي السعيد وهي حلقة الثقة المتبادلة بين الأبناء والوالدين.

ولو كان الصغير يكتشف أن والديه كذبا عليه لأنهما يحبان الكذب لما خسر إلا ثقته بهما. ولكنه يدرك أن هذا الكذب كان لا بد منه بالنسبة إلى خطورة الموضوع والخجل الكامن فيه. ومن هنا تنشأ مشكلة فقدان ثقته بالجنس، ولذلك كان على الأطباء النفسانيين الذين يلجأ إليهم الآباء لمعالجة هذا الموضوع، أن يعنوا بشرح قيمة العلاقة الجنسية للأطفال.

على الطبيب أن يخبر الصغير أن العلاقات الجنسية التي بين الناس ليست أمراً فظيعاً، ولا هي أمراً شريراً، ولا هي أمراً كريهاً، وعليه أن يخبر الصغير أيضاً أن والديه لم يقترفا أمراً معيباً عندما أجريا ذلك الاتصال الجسماني الذي أدى في النهاية إلى ولادة الابن، وبأسلوب مبسّط يعرف

الصغير أن العالم كله، قام على هذه العلاقات التي لولاها لما كان هذا العالم.

وعلينا نحن، آباء كنا أم أمهات، أن نعرف كيف نتحاشى هذه المشاكل، منذ الآن، وأن نستغني عن الأطباء، خاصة وأن بلادنا العربية تفتقر إلى الأطباء النفسانيين المتخصصين في مثل هذه المواضيع، وذلك بأن نكون حذرين في معالجة أمور الجنس مع أولادنا، بحيث نشرح لهم الحقائق دون كذب. وإلا كنا نحن، الآباء والأمهات، في حاجة إلى مواعظ هؤلاء الأطباء أكثر من أبنائنا. وكان نصيبنا من تأنيب الطبيب أكثر من نصيب الابن الصغير الساذج!

ولكي يرى القارئ مثالاً حسياً على حقيقة ما أقول، سأستشهد باختبار ذكره الدكتور وليم فيلدنج في كتابه "حياة الحب والجنس". وهذا الاختبار يوضح الفرق بين صغيرين أحدهما. عرف الحقيقة الجنسية بصورة صحيحة علنية والثاني كذب عليه أهله.

ولدت قطة الدكتور فيلدنج عدة قطط صغيرة، فذهب الدكتور إلى عائلة مجاورة له وطلب من ابنة تلك العائلة وجارتها، وهما صغيرتان، القدوم لمشاهدة القطة وأطفالها. وكانت الابنتان في الخامسة من عمرهما، في الصف الابتدائي الأول في المدرسة، وصديقتين حميمتين لبعضهما بعضاً.

نظرت الفتاتان إلى القطط وراحتا تلاعبانها. ثم قالت أولاهما فجأة: "إني أعرف من أين تولد القطط". فأجابتها صديقتها مفاخرة: "وأنا أعرف ذلك أيضاً فماذا في الأمر؟".

– إذن قولي لي من أين تخرج هذه القطط ما دمت تعرفين؟

– شيء بسيط. القطة الأم تذهب إلى الحقل وتحضرها في الليل، من تحت الشجر، دون أن يشاهدها أحد.

فضحكت أولى الفتاتين وقالت هازئة: "إنك مخطئة تماماً. إنك جاهلة لا تعرفين شيئاً، بينما أنا أعرف كل شيء".

– كلا، أنا أفهم كل شيء، أمي أخبرتني بالحقيقة.

– إذن أمك لا تفهم. وإلا لكانت أخبرتك الحقيقة كما أعرفها أنا، القطط لا تخرج من تحت أوراق الشجر.

– أنت كاذبة، إن أمي تعرف كل شيء ولا يمكن أن تخطئ.

– إن أمك غبية مثلك. ولو لم تكن كذلك لكانت عرفت عن الولادة أكثر من ذلك.

– أمي لا تعرف؟ إذن أخبريني أنت، ما دمت تفهمين أكثر من أمي، من أين تأتي القطط؟

– إنها تكون في بطن أمها مدة طويلة؛ وتبقى كذلك، والأم تنتقل بين مكان وآخر وهي تحملها في جوفها. وهذا هو سبب نصاحة جسم القطة قبل أن تلد. ثم، في وقت معين، تذهب القطة الأم إلى السرير وتستلقي عليه، لتخرج القطط الصغيرة من بطنها.

غير أن الطفلة الأخرى لم تفهم ذلك، وبالتالي لم ترد أن تقبل به. واكتفت بأن اعتبرت كلام رفيقتها كلاماً سخيفاً، فانفجرت ضاحكة "إن كل ما تقولينه سخيف. كيف يمكن للقطة أن نضع القطط الصغيرة في بطنها، ثم كيف تخرجها ثانية. وهل لبطون القطط أبواب للدخول ثم للخروج؟".

وأصرّت كل من الفتاتين على رأيها، وتجادلتا طويلاً. ثم انتهى ذلك الجدال بقتال بينهما شديد، شدّت فيه الشعور، وخمشت الوجوه، وتمزقت الأثواب. ولم يهدءا إلا بعد أن حملت كلاً منهما إلى بيتها.

هذا هو الفرق بين الطفلة التي يكذب عليها أبوها أو أمها، والطفلة التي تسمع الحقيقة.

ويضيف الدكتور فيلدنج إلى هذا الاختبار ذكريات شخصية يستجمعها في ذاكرته منذ طفولته.؟ فيقول عن نفسه أنه كان وحيداً لعائلته. وما أبوه وهو بعدُ رضيع. فعاش في كنف أمه – كنف امرأة لا زوج لها – كان ذلك في أواخر العصر الماضي، ولم يكن من السهل في تلك الأيام سماع المعلومات الصحيحة عن الجنس (ذلك أن العالم تقدم خطوات

محسوسة في هذا الموضوع. وإن كان اليوم، بعد نصف قرن من التقدم، لا يزال بيننا أغلبية من الآباء تكذب على أبنائها- ليس من العجب أن يكون بحض موضوع الجنس، في تلك العصر، أمراً غير مألوف).

يذكر الدكتور أنه لما سأل والدته عن طريقة مجيئه إلى العالم أجيب بأنه أتى في حقيبة الطبيب. ولما سأل ما إذا كانت تلك الحقيبة لا تستعمل إلا لإحضار الأطفال أجيب بالإيجاب. إلاّ أنه سمع من رفاقه في المدرسة قصصاً غريبة أخرى. سمع أن الأطفال يأتون على أكتاف الطيور، أو يلقون من السماء في سلة إلخ.. فتضاربت هذه الروايات المتعددة والمختلفة في نفسه وقرر أن يستفهم عن الموضوع من طبيب العائلة بنفسه. ولما أتى ذلك الطبيب ذات يوم إلى بينهم لعيادة أمه، تقدم إلى غرفتها الخاصة بعد أن ترك حقيبته في غرفة الاستقبال. فحاول الصغير فتح الحقيبة، دون أن يفلح. لذلك ذهب وأحضر دبوساً طويلاً (من الدبابيس التي كانت النساء تستعملها لتثبيت القبعة فوق شعر الرأس) وأدخله في الحقيبة وأخرجه من الجانب الآخر. وقد فعل ذلك دون أن يسمع صراخ طفل. فاكتشف أن الحقيبة ليس بها أطفال وأنها لا تحمل إلا أدوات طبية. واكتشف، أيضاً، أن قصة أمه كاذبة، وأن الأمر ليس كما روت.

وأدرك، بالرغم من صغره، أن المتابعة في إلقاء الأسئلة في هذا الموضوع على أمه لن يفيده شيئاً، إذ أنه لن يسمع إلا أجوبة من النوع نفسه – أجوبة كاذبة لا أساس لها من الصحة. لذلك قرّر أن ينتظر إلى أن

يستطيع كشف الحقيقة بنفسه – إلى أن ينضج ويصبح رجلاً يفهم كل شيء.

وظل فيلدنج – كما يحدثنا بنفسه – غير مهتدٍ إلى الحقيقة إلى أن ذهب إلى مدرسة داخلية، بعد أن عبر مرحلة الطفولة. وكان أمر اكتشاف هذه الحقيقة، أمراً صعباً جداً، خاصة لشدة إحساساته وعصبيته وخجله الزائد. ولم يصدق الغلام بادئ الأمر، إذ لم تكن أفكاره تسمح له بتصديق أمر غريب، فظيع كهذا، وظل في شك إلى أن أخذه أحد أصدقائه مرة إلى نافذة غرفته ليريه منظر كلب وكلبة يتعاطيان الاتصال الجنسي من تحت الشرفة، وعندها اضطر لأن يصدق المسألة ويجابه الواقع. إلا أن مجرد التفكير بأنه أمه – تلك المرأة الجميلة المقدسة البريئة، بالنسبة إليه – لا يمكن أن تكون قد تعرضت لعمل دنيء مخجل كهذا. وكان التفكير في هذا أمراً مزعجاً يزوره في تخيلات مستمرة في النهار، وفي أحلام مزعجة في الليل، وقاسى أيامه ولياليه في انزعاج التفكير بهذا الشيء الغريب المعيب الذي فعله أبوه مع أمه وقاده ذلك إلى الشعور نحو أمه بنفور وابتعاد، وإلى إهمال ذكرى أبيه في نفسه واحتقارها، وانقباض نفسه لدى تذكر أي منهما. لقد وجد الحياة كلها دنسة نجسة وسخة وضيعة. ووجد والده وأمه، وهما أعز المخلوقات لديه، في مقدمة هذه النجاسة والوساخة والضعة والدنس، حتى أن شعر نحو نفسه أنها هي أيضاً وسخة دنسة، مادامت قد أتت إلى هذا العالم بطريقة محتقرة مثل هذه – طريقة وحشية لا جمال فيها ولا لذة ولا أدب – هكذا خيّل إليه!.

ولكنه، مع الوقت، تحرر من هذا الشعور الآثم، إذ تذكر أنه ليس الوحيد في هذا العالم، وأن هذه الطريقة التي هي سبب وجود كل أفراد البشرية يجب ألا تكون مصدر إزعاجه هو وحده وما دام كل العالم، إذن، في هذه النجاسة والصفة، فلا عيب فيه هو شخصياً.

ولكن هذا لم يمنع صاحبنا من أن يظل يحتقر أمور الجنس ويخشى من الكلام فيها أمام الناس المحترمين، وأمام أهله؛ لذلك كان يكتفي بالتحدث فيها مع أصحابه فقط، إذ كان يتبادل وإياهم المعلومات التي تصل إلى أسماعهم، والروايات والأساطير التي يتناقلونها. وكان معظم هذه الأخبار سخيفا مغلوطا، إلا أنها كانت تبعث فيهم شعور الارتياح– الارتياح بالمعرفة!

وكانت نظرته، مثل نظرة أصحابه الذين في حالته، إلى الفتيات تخرج عن زاوية منحرفة– إذا كانت نظرات خجل، وتوتر وشهوة مبهمة.

إن اختبار فيلدنج هذا، الواقعي، يؤكد لنا أنه لو كانت والدته ذات شجاعة كافية لأن تخبره عن موضوع الولادة كما يجب لوفَّرت عليه انقباضاً وخجلاً وكتماناً داموا مدة طويلة، وحرمانا من التنعيم بنظرة صحيحة نحو الحياة والحب والمرأة.

وهنا يبرز في أفكار كل منا، بلا شك، السؤال التالي: ما هي الطريقة الفضلى لإخبار هذه الحقائق الجنسية لأبنائنا الصغار؟

لقد كتب في هذا الموضوع عشرات علماء الجنس والتربية في أوربة وأميركا. وبعد أن طالعت معظمها، وجدت أن أغلبية هؤلاء العلماء يتفقون على الطريقة الآتية، على اعتبار أنها أعقل الطرق وأسلمها، وأكثرها واقعية وبساطة.

عندما يأتي الطفل إلى أبيه متسائلاً "بابا من أين ولدت أنا" أو "عمتي ماري تنتظر مولوداً، فكيف عرفت بذلك، ومن أين ستأتي به؟ (الطفل يأتي، عادة، ليسأل أباه وهو في سن الخامسة من عمره، أو ما حول ذلك)، عندها أعتقد أن أصح الأجوبة هو "أن الأطفال يا بني يأتون من بطون أمهاتهم؛ فالطفل هو جزء من بطن أمه، وهو بالتالي جزء من جسمها كله. وعمتك ماري تعرف أنها ستلد لأن الطفل جزء من جسمها، وهي تشعر به يتحرك في داخلها كما نشعر نحن بوجع المعدة، مثلاً، أو بتحريك الأمعاء لما تكون مرتبكة".

وسيكون السؤال الثاني، بعد أن يسمع طفلك هذا، هو "إذن أن نصاحتها هذه الأيام ناتجة عن هذا الطفل التي تحمله في جوف جسمها؟"

– نعم.

– فهل هي أدخلت الطفل في فمها، حيث وضعت داخل جسمها؟"

– نوعاً ما، نعم، وإن يكن ليس تماماً كما تقول.

– هل كل الأمهات تبلع أبناءها قبل أن تلدها؟

– ليس تماماً، ولكن في طريقة ما. إن الأمهات لا يبلعن الأطفال بأفواههن كما نأخذ الطعام.

– إذن كيف يحدث ذلك يا أبي؟

– سأحاول أن أشرح المسألة لك. ولكني لن أتمكن من شرح العملية بكاملها لأنك أصغر من أن تفهم كل شيء في المسألة، ولكني أعدك بأن أبيّن لك الموضوع بكامله بعد أن تكبر وتصبح مثلي، رجلاً ناضجاً قادراً على فهم كل أمور الحياة وأسرارها. ذلك أن في الحياة أشياء كثيرة لا نستطيع أن نفهمها حينما نريد نحن، وعلينا أن ننتظر إلى أن نبلغ سن الشباب.

– ومتى يحدث ذلك؟

– إذن ذلك يتوقف على سرعة تعلّمك للأمور التي نحيط بها. وأعتقد أن باستطاعتك، بعد خمس سنوات تقريباً، أن تصبح قادراً على الفهم. ويومها سأشرح لك كل شيء.

– أخبرني الآن إذن عمّا أستطيع أن أدركه منذ اليوم.

– حسناً. اسمع يا بنيّ. أنت تعرف كيف تنمو الزهرة. إننا نزرع البذرة أولاً في تراب الحديقة، ونتركها، والبذرة، بنفسها، تنمو وتكبر حتى تصبح زهرة ناضجة، مع أنها في الأصل لم تكن إلا بذرة صغيرة وحقيرة.

وأنت تعرف أيضاً كيف تضع الدجاجة أفراخها الصغار "الصيصان". إن الدجاجة، الأنثى، تجلس فوق البيضة مدة من الزمان، وبعدها يخرج من البيضة "صوص" صغير. والأم تضع طفلها في طريقة مشابهة للدجاجة وللزهرة، فالرجل والمرأة، في هذه الحياة، كثيراً ما يجتمعا في الشارع أو البيت أو المدرسة. فإن أحبّا بعضهما حباً شديداً، يتفقان على العيش معاً في بيت واحد، ليحملا معاً اسماً واحداً، ويبقيان سوية إلى الأبد. وهكذا يذهبان معاً إلى الشيخ أو الخوري ويعلنان زواجهما. وبعد ذلك بقليل يبدأ عندهما ميل إلى أن يكون لهما أطفال أيضاً، ليلعبا معهم ويلتذان بطلعاتهم ومرحهم. فالرجل الذي يجب أن يصير أباً، يضع في جسم امرأته– في بطنها– بعض البذور؛ وإن كانت هي أيضاً تحب ذلك تضع في جسمها بذوراً أخرى. وبعد التقاء هذه البذور في بطنها، بمدة تسعة أشهر، تنضج مثلما تنضج بذرة الحقل وتصبح زهرة. هنا البذور تتحول إلى شخص بشريّ – إلى طفل. والمرأة تلقي الطفل من بطنها كما تستلقي الدجاجة على البيضة. ويكون الطفل في أول عهده شبيه بالبيضة، مثل الصوص. والفارق بين الطفل وفرخ الدجاجة، أن الفرخ يخرج من البيضة التي تحيط به بعد أن يخرج من بطن الدجاجة. أما الطفل فيخرج مما يحيط به قبل أن يخرج من بطن أمه. هل فهمت ذلك يا بنيّ؟

وبعد تفكير لحظات قليلة سيجيبك الابن "نعم.. ولكنك قلت أن الطفل هو جزء من أمه؟"

– هو كذلك. عندما يخرج الطفل من بطن أمه يكون مرتبطاً بها بنوع من الحبال مصنوع من اللحم، وهي مادة من جسم المرأة نفسها. والطفل يستعمل هذا الحبل اللحمي ليأخذ به غذاءه من جسم أمه وهو بعدُ في بطنها. ولكنه لما يخرج من بطنها يقطع الحبل، إذ يصبح حراً، كإنسان مستقلّ قائم بذاته. ومع أنه يظل يحتاج إلى رعاية أمه وعنايتها به، ومع أنه يظل خاضعاً لإشرافها ووصاياها، إلا أنه لا يعود جزءاً منها، بل يصبح مخلوقاً بشرياً مثلها، ومثلك أنت، ومثلي أنا.

– فهمت ذلك. ولكن ألا يوجد حبل بين الدجاجة وأفراخها؟

– كلا يا بني. فقد أخبرتك أن ولادة الطفل تشبه وضع البيضة أو الزهرة ولكنها ليست مثلها في كل شيء. فهناك فروقات نتكلم عنها، كما اتفقنا، لما تكبر!

ألا يؤلم الأم أن ينزع الطفل من جسمها، من لحمها. فأنا كنت أتألم كثيراً عندما نزعت سني من فمي، فكيف الحال إذا كان جسم الأم سيفقد طفلاً كبيراً؟

– إن ولادة الطفل تبعث في جسم المرأة بعض الألم، بلا شك. ولكنه ألم خفيف، وليس كما تتصور. وعليك يا بني أن تعرف أن وضع البذور في

جسمها، أول مرة، يزعج المرأة ويؤلمها أكثر من إخراج الطفل. وهذا الألم هو من الأسباب التي تدعونا لأن نطلب من أبنائنا أن يحفظوا ذكرى أمهاتهم وأن يطيعوهن ويسمعوا وصاياهن. فأمك، كما تألمت في حملك داخل بطنها تسعة أشهر كاملة، وكما تألمت عندما نزعت عنها، كذلك تألمت لما وضعت، أنا أبوك، بذورك في جسمها.

ثم، بعد أن يفكر الصبي قليلاً، يعود فيتذكر أنه لا يزال يحمل لأبيه بعض الأسئلة الاستفهامية. وقد يكون السؤال التالي أولاها "ولكن، مما ذكرته يا أبي، الأم لا تفعل كل شيء في عملية ولادة الابن. فهي تحتاج إلى معونة الرجل، ولا تستقل في العملية. أليس كذلك؟".

– نعم. فكما أخبرتك أن البذور التي تدخل جسمها، لتضع الطفل، وتخرج بعد مدة ٩ أشهر طفلاً كاملاً لا بد وأن تخرج أولاً من جسم الرجل. فهي بذور موجودة فقط في جسم الرجل ولا يوجد وسيلة أخرى لإدخالها في جسم المرأة إلا بواسطة الرجل.

– فهمت منك يا أبي أن المرأة، لما تحمل البذور لأول مرة، ومن ثم تخرجها في شكل طفل، تتعذب وتتألم. ألا يتألم الرجل أيضاً عندما ينقل هذه البذور من جسمه إلى جسم امرأته؟

– كلا، يا بني. أن الرجل لا يتعب من ذلك. على العكس أن يلتذ من هذه العملية التذاذاً عظيماً، يكاد يتفوق على باقي ملذات الحياة التي نسرّ منها. ولولا هذه المتعة في إنجاب الأولاد لما كان الرجال يسعون كثيراً

إلى الزواج. على كل حال، سأترك باقي تفاصيل الموضوع إلى المستقبل، كما اتفقنا.

– ولكن، ألا يستطيع الرجل وحده وضع طفل، دون معونة المرأة؟

– كلا. مثلما لا تستطيع الأم الانفراد بالولادة، لا يستطيع الرجل ذلك. إنها عملية مشتركة.

– وهل عليهما أن يتزوجا قبل أن يأتيا بالأطفال؟

– نعم، على الرجل والمرأة أن يحبّا بعضهما بعضاً، ومن ثم يتزوجان زواجاً معترفاً به عند الحكومة والمجتمع. أما إذا لم يتزوجا يعتبر الناس الذين يعرفونهما أنهما عملا عملاً خاطئاً، ولا يعودون يحترمونهما.

هذه هي الطريقة المثلى التي يكاد العلماء يجمعون على أفضليتها عن باقي الطرق التي بواسطتها تبدأ ثقافة الصغير الجنسية، إذ يتعرف بها على أوليات أمور الحياة الجنسية، التي تنمو مع نمو جسمه وعقله.

إلا أن هذه الطريقة لا تخلو من بعض المتاعب التي يتعرض لها الوالدان في بعض الأحيان. وأكثر هذه المتاعب في تحدث الصغار بهذه الأمور التي عرفوها من أهلهم أمام الضيوف أو الجيران. وكثيراً ما تشكو معلمات روضات الأطفال من أن هؤلاء الأطفال الذين أخبرهم والدوهم بأمور الجنس "يفسدون" رفاقهم في المدرسة بالقص عليهم كل ما سمعوه في البيت. ولكن علينا ألا ننسى أن هذه المتاعب أهون كثيراً من إبقاء

الأطفال في جهل بالأمر. ذلك أن إخبار الطفل لرفيقه حقيقة الأمر بخصوص ولادته أفضل من أن يكذب عليه كذبة جديدة تنطلي عليه شهراً أو سنة ثم تتبخر أمام واقع الحياة.

وعلى الأب الذي يقبل بهذه الطريقة ليتبعها مع ابنه، أن يحذر من موضوع حساس كثيراً ما يغفل الآباء أمره فيقعون في خطأ مبين: أعني به موضوع علاقة الحب بالحياة الجنسية، فعلى الأب أن يفهم تماماً، كي يُفهم ابنه أيضاً، أن الحب ليس مجرد علاقات جنسية، كما ليس هو مجرد عاطفة روحية، فحسب. والعلاقة بين الحب والجنس دقيقة بحيث يخشى على موقف الابن منها إن أساء فهمها لعدم توجيه والده له توجيهاً صحيحاً. فإن قال الأب أن الحب هو الجنس تضاءلت قيمة المثل العليا في عيني الصغير، ونمت في نفسه فكرة جسمانية مادية عن الحب تنزل به إلى مستوى رخيص– وحشية وإراقة دماء وإشباع نهم، دموع وعطش ماديّان لا سمو فيها– وإن قال الأب أن الحب هو روح فحسب تضاءلت قيمة الجنس عند الغلام، واعتبر الزواج والعائلة أموراً غير لازمة، ونظر إلى العلاقات الجنسية، حتى الزوجية منها نظرة عيب وخجل، ولم يعد يفرق بين الدعارة الرخيصة والزواج المقدس.

لذلك فمن أولى واجبات الآباء أن يفهموا بينهم أن الروح والجسد صنوان لا يفترقان وليس للواحد غنى عن الآخر، مثلما ليس للذكر أو الأنثى غنى عن بعضهما بعضا من عملية إنجاب الأبناء. ومن الخطأ أن يحقّر الآباء الروح على حساب الجسد، أو الجسد على حساب الروح. فالحب

هو الاثنان معا. والجسد دعامة له مثل الروح، تماماً. والزواج هو حاصل رغبة جنسية قائمة على المتعة واللذة مع رغبة روحية قائمة على المثل والسمو.

نعم، إن الصبي أو الفتاة، قبل أن يصلا إلى سن البلوغ، يكونان على درجات متفاوتة من البعد عن الانفعالات الجنسية الحقيقية، ذلك أن الغريزة الجنسية في الإنسان، الموجودة منذ الولادة، تظل مختلفة في جوهرها عن فعالية الغريزة الموجودة بعد البلوغ. وهي، قبل البلوغ، تكون في غفوة، وفي إبهام. ولا يبدأ صحوها وتبلورها إلا في المرحلة الثانية، التي سنعالجها في الفصل التالي، مرحلة التكامل والسير نحو البلوغ. أما الصغار الذين تبدأ صحوة أعضائهم التناسلية في النمو والإحساس الزائد وهم بعد في أوائل العمر، فهم أشخاص غير طبيعيين، وفي قواهم الجنسية شذوذ يجب أن يعالج باهتمام. وأنا أنصح آباءهم بإلقاء المسألة على طبيب أخصائي في الموضوع، جسمي أو نفساني، ليعالج الطفل. إذ أن هذا الصحو يؤدي إلى إنماء رغبة جامحة في الصغير لأن يسعى وراء اللذة الجنسية من قبل أن يصبح جسمه مؤهلاً لذلك. وتكون هذه الرغبة غير صحية أبداً. وقد تؤدي في النهاية، إلى بعض الحالات الشاذة، التي من أخطرها عادة الاعتداء على الغير– ضرب الأطفال أو قرصهم أو شد شعرهم، في سن الطفولة؛ وضرب الشباب والقتل والتعدّي على الأعراض في سن الرجولة. وعلى الآباء أن يصرفوا وقتاً طويلاً كي يحولوا دون تمادي أبنائهم بهذه التعديات، إن كان أولئك الأبناء من هؤلاء الذين حيويتهم الجنسية في زيادة.

قلت قبلاً أن معظم الصغار يكونون بعيدين عن الانفعالات الجنسية التامة، قبل البلوغ. ولكن هذا لا يمنعنا من أن نؤكد هنا أن على الآباء، بمجرد أن يبدأ فضول أبنائهم يتّسع ويمتد، بخصوص قضايا الجنس والحب والولادة، عليهم أن يبدأوا في تثقيف الأبناء ثقافة جنسية، كما أوضحنا.

إيّاك، أيها الأب أو الأم، أن تعتقد أنك بإغفالك أمر الغلام عن الجنس تكون تفيد ابنك. إن الجسم هو هيكل الروح، والكتب المقدسة تعتبر الأجسام مثال الله. أما التنسك وقتل الشهوات وتعذيب الأجسام فقد مضى عهدها، ولم يعد الإنسان المتدين يرضى أن يهمل هبة أعطاه الله إياها. إن إهمال الجسم تعطيل لنظام الكون وتوقيف لسنة الحياة. والطهارة ليست في الامتناع عن إيضاح قضايا الجسد أو في التعفف عن الاتصال بالنساء، بل هي في المحافظة على هذا الاتصال على صعيد شريف عفيف.

إن تركيب الجسم البشري، بأسراره وغرابته ودقته، قد يقود الابن الصغير إلى الاهتمام بالجنس وهو بعدُ طفل. وعلى الأب إذن أن يفهم ابنه كافة أسرار هذا الجسد البشري، مع التأكيد على قيمة الجسد وأهميته. وكثير من الموبقات التي يرتكبها البالغون تنتج عن إهمال الآباء لشرح قيمة الجسد منذ صغر أبنائهم أما إن أدرك الصغير قيمة جسده وفهم أن عليه أن يحافظ على صحته وسلامته، شبّ على احترام ذلك الجسد وشاب على العناية به.

وأفضل الطرق لوصف قيمة الجسد للصغير تتم بتصوير المرض كحرب مستمرة بين الجراثيم الآثمة وبين قوى الجسد التي تمنحه الصحة، وبتشبيه الجراثيم كالخارجين على القانون وأعداء البلاد، والقوى الصحية بالبوليس المسئول عن أمن الناس.

وبينما أدعو الآباء إلى صرف الساعات الطويلة مع أبنائهم في الكلام عن قيمة الجسد أدعوهم أيضاً إلى صرف أوقات مماثلة في الكلام عن قيمة القلب، مصدر الحب والشعور للإنسان، وقيمة العقل، مصدر الوعي والمثل. كذلك من الآباء الاهتمام بتشجيع أبنائهم على الاهتمام بالجمال– الجمال المشترك مع الحب ومع الجنس والأمثلة على الجمال أكثر من أن تحتاج لتعمق في الموضوع. ويكفي الآباء أن يشرحوا لأبنائهم ما في التماثيل، والأزهار، والطيور، والحقول، من جمال وهيبة وتناسق وانسجام أن حب الجمال هو أساس الأخلاق. والأخلاق هي أساس العلاقات الجنسية الشريفة والحب. وليس من شيء يبعد أفكار الصغار عن سوء فهم أعضاء الجسم التناسلية مثل حاسَّة تذوّق الجمال. فالطفل الذي يعتاد على رؤية التماثيل العارية يألف مشاهدة الصدور والسيقان وأعضاء التناسل، ولا يعود يعتبرها أموراً محرّمة، وبالتالي أموراً مخجلة تتوتر أعصابه عند الكلام عنها، وترتخي قواه عندما تسنح له الفرصة بمشاهدتها.

إن الجمال يبدّد الخجل والكبت، اللذين أن نميا مع الصغير وهو لما يبلغ طور الشاب يسبّبان له آلاماً ومآسي أصعب من أن يحتملها، وأخيراً، ختاماً لهذا الفصل أحب أن أكرّر ما كنت قد بدأت قوله من قبل، وهو أنه

علينا أن نقضي على الفكرة الخاطئة السائدة بين الناس، وخاصة في شرقنا العربي، وهي "أن الصغير أصغر من أن يفهم أموراً صعبةً كأمور الجنس". أن الصغار، ولو كانوا أصغر من أن يفهموا هذه الأمور، فهم على الأقل يلاحظونها، وإن لم يفهموها. لذلك علينا أن نعالج هذه الأمور معهم لنجيب على ملاحظاتهم واهتمامهم بها.

إني أعرف زوجين اضطرا، لضيق المال معها، أن يسكنا في بيت ضيّق، فوضعا سرير طفليهما الصغيرين جداً في غرفة نومهما معهما. وذات يوم سمع الزوج أحد هذين الطفلين، الأكبر منهما يوقظ أخاه من نومه، قائلاً "استيقظ يا أخي. إن البابا والماما مزمعان على هز السرير، كالعادة"!

إن مثل هذه القصة قد تضحك الكثيرين، ولكنها في الحقيقة – بالنسبة إلى موضوعنا في هذا الكتاب، مأساة سريرة، تمثل لنا وعي الطفل لأمور الجنس، حتى ولو كان هذا الوعي ساذجاً بسيطاً، فالطفل يلاحظ دون أن يفهم ويدرك حقائق الأشياء. وإلقاء الأطفال للأسئلة الكثيرة التي يجابهون بها والديهم من وقت إلى آخر (وهي الأسئلة التي عالجناها في هذا الفصل) برهان على دقة ملاحظة الأطفال. إن الصغير، قبل أن يبلغ، بريء. لا أحد ينكر ذلك، ولكنه ليس بجاهل، فلنعرف هذه الحقيقة، لنعرف كيف نعالج الصغير قبل أن يبلغ.

الفصل الثالث

على أبواب البلوغ .. أول مظاهر سن المراهقة

بين مراحل نمو قوي الإنسان الجنسية، مرحلة خطيرة جداً، وهي المرحلة التي سنعالجها في هذا الفصل، لأنها أول خطوة في سن المراهقة. وفي هذه المرحلة يقف الإنسان على أبواب عهد البلوغ. فيكون قد ترك عهد الطفولة، وما في الطفولة من صفات تطبعه بطابعها الخاص، ولم يصبح بعد بالغاً، قادراً على فهم الحقائق الجنسية عملياً، ولا على استثمار قواه الجنسية استثماراً طبيعياً كاملاً، مثل باقي البالغين. ويشاهد هذا الصغير الأطفال وهم بعد في سذاجتهم وبساطتهم وضعف إدراكهم فلا يلتذ بمخالطتهم لأنه يعتقد أنه يفهم أكثر منهم في مسائل الحياة، وخاصة الجنس؛ ويشاهد المراهقين، في "تمتعهم" بالنسبة إليه، بملذات الحياة، وقدرتهم على فعل كل شيء، حتى الإنجاب، فلا يتمكن من مجاراتهم في ذلك، لأن الطبيعة لم تمنحه بعد القوة الكافية للإنجاب، التي منحتها لهؤلاء، وهنا يقف في موقف وسط دقيق محرج.

ومن الصعب أن نحدّد سن الصغير في هذه المرحلة، ذلك أن مراحل نمو الإنسان الجنسية غير محدَّدة في سنوات ثابتة؛ فالفرق بين إنسان وآخر، الناتج عن الفرق بين قوى كل منهما، من الناحيتين الجسمية والعقلية، يختلف كثيراً؛ فقد يكون في العائلة الواحد طفلان، للأول منهما ذكاء

الثاني، مع أن بينهما أربع أو خمس سنوات من الفرق في عمريهما. والكثير من فروقات سن عهد قبيل المراهقة يتوقف على مقدار نمو الأعضاء التناسلية، وإحساسات المرء، ورعاية البيت له، ومقدار تثقيفه الثقافة الجنسية الصحيحة، وظروف النشأة، وغير ذلك؛ لذلك يصعب تحديد سن هذه المرحلة. ولكن هذا لا يمنعنا من القول أن معظم صغار هذه المرحلة يكونون بين العاشرة والثانية عشرة.

إن أهم صفات هذه الفترة – خاصة عند الفتيان – هي أنها أقل فترات الحياة اهتماماً من قبل المرء بأمور العلاقات الجنسية؛ ففي الطفولة ينظر الطفل إلى الجنس كسرّ، ويسعى دائماً بأسئلته المتكررة لأن يحله. وفي المراهقة يصبح الجنس محور حياته. أما في هذه المرحلة فالجنس عنده مجرد مزحة يتناولها بين الحين والآخر. ذلك أنه يعرف سرّها، كالبالغ، ولكنه لا يقوى على تعاطيها، مثله مثل الطفل!.

وهذا الشعور بالاستخفاف بالجنس أمر خطير؛ إذ أن بقاء هذا الشعور عند الصغير إلى ما بعد دخوله سن المراهقة قد تعطل عليه اهتمامه بالأمور الجنسية، فتحرمه بذلك من لذة طبيعية واجبة في كل إنسان، وتتركه فريسة وحدته وآلامه التي لا يحتملها.

إلا أن الحظ الأكبر الذي قد يتعرض له الإنسان في هذه المرحلة يأتي عادة من مصدر آخر– من تقبله الآراء التي يسمعها، ممّن أتى بها ومن حيث تصله. ومصدر الخطر الحقيقي يكمن في الوالدين نفسيهما، اللذين

يكونان قد أفهماه معلومات خاطئة لا أساس لها من الصحة، حول الجنس والولادة، فينمو ابنهما وهو ينظر إلى هذه الأمور بريبة وخجل، ويحاول إزاء هذا الخجل أن يتعاطى المسألة ليكشف عن حقيقتها، وكل ممنوع مرغوب، كما تعلمنا في فصل سابق.

يذهب الصغير إلى المدرسة، ومن خلال صداقاته واتصالاته مع رفاقه فيها يصل إلى الاقتناع بأن الجنس ليس فقط أمراً لا يبحث فيه أمام الكبار، بل هو أيضاً مجرد موضوع للمزاح والهزل، يصلح لأن يقطع به الصغار وقتهم – ولكن عليهم ألا يتحدثوا به أمام الجنس الآخر، فذلك عيب – وبعد هذا الاقتناع يصرف الصغار أوقاتهم في تبادل قصص العلاقات الجنسية وأساطيرها الخيالية بكل خفة وبساطة.

حتى الصغير الذي يكون والداه قد أفهماه الحقيقة الجنسية كما يجب، يتعرض هو أيضاً في هذه المرحلة، وبفعل المحيط الذي يعيش فيه، إلى أن يستخف بأمر الجنس. لذلك كان على الآباء ألا يكتفوا بإخبار الأبناء بالحقيقة، بل عليهم أن يوضحوا للأبناء أيضاً أهمية الموضوع، وعدم جواز الاستخفاف به إن كان غيرهم يستخفون به ويهزأون منه.

إلا أن بعض الآباء الجاهلين بهذه الأمور يعتقدون – عندما يجابهون مسألة كهذه – أنها قضية مؤقتة، وأن الابن لما يكبر كفاية يعرف كيف يحمل المسألة على محمل الجد وكيف يتغلب على هذا النقص في تقدير القيمة. إلا أنني أؤكد لهؤلاء الآباء أن اعتقادهم خاطئ. فقد دلت

الإحصاءات الأخيرة التي أجراها أكبر معهد لأمور الجنس في الولايات المتحدة أن تسعة أطفال، من بين كل عشرة، تبقى صفة الاستخفاف عالقة في أذهانهم، ومؤثرة على تصرفاتهم، إلى ما بعد دخول مرحلة المراهقة، ولو بدرجات ونسب تختلف بين واحد وآخر، وبين حالة وأخرى.

من واجب الوالدين الواعين، إذن، أن يبحثوا عن العلاج، وأن يولوا المسألة الاهتمام الذي تستحقه، وليست المسألة في غاية الصعوبة، كما قد يفهم القارئ، خطأ، من شدة توكيدي عليها. فهي أبسط مما تظهر عليه، ولكن بساطتها لا تخفف من قيمتها.

حلّها يكون في مدى صراحة الوالدين مع أبنائهم عندما يحدثونهم بهذه المسألة؛ فليس مثل الصراحة لتبديد الأوهام العالقة في الأذهان للقضاء على النظر إلى الجنس كموضوع مخجل ودنيء ومحتقر.

وكان معظم الأشخاص الذين أتباحث وإياهم في مسألة الصراحة ووجوب اعتمادها وسيلة للعلاقة الأبوية- البنوية، كانوا يحتجّون دائماً بأنهم غير صريحين مع أبنائهم لأن هذه الصراحة، وما تحمله من كشف عن أمور كثيرة مخفية عن أعين الصغير، تضع في فكره بذور الإقبال على العلاقات الجنسية والاهتمام بها، من قبل أن يبلغ تماماً.

وأنا لا أكذب هذه الآراء فإني أعترف مع قائليها بأن كشف الحقيقة عن الصغار قد يفتح أمامهم مجال السعي لاغتنام اللذة حالما تسنح. ولكن أعود فأسأل هؤلاء الآباء: "هل يضمنون أن تظل هذه المعلومات "البذور"

بعيدة عن عقول بينهم؟ ألا يعترفون معي بأن هذه المعلومات ستصل إلى إسماعهم في شكل من الأشكال، وإن لم يكن من الوالدين مباشرة فمن الأصدقاء، بطرق ملتوية خاطئة، وإن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غد؟".

إذن لم يبق أمام الآباء مجال للاختيار. إذ أن ما يتغافلون هم عن فعله سيفعله غيرهم. لذلك ليس عليهم إلا أن يباشروا، هم أنفسهم، بإعطاء المعلومات الصحيحة لأبنائهم وإلا خسروا المعركة. إن الوالد الذي يحجب هذه الأخبار عن ابنه لا يكون يحجب عنه الاهتمام بالجنس. إنه فقط يحجب حقيقة صريحة ليفسح المجال أمام معلومات خاطئة مضرة تأخذ مكانها في عقل الصغير. وعقل الصغير حقل خصب لبذور المعلومات الخاطئة أكثر مما هو خصب لبذور المعلومات الصحيحة والحقائق الجنسية العالية.

حجّة أخرى يتذرّع بها الآباء الذين يصرون على وجوب كتمان الحقائق عن الأبناء، حتى وهم على أبواب سن البلوغ الجنسي، أن الابن، قبل أن يصبح مراهقاً، يكون أصغر من أن يفهم. وهذه هي الحجة نفسها التي يستعملها الآباء في الدفاع عن فكرة منع الحقائق عن الأطفال؛ وإن كانت هذه الحجة غير مقنعة لنا نحن طلاب العلم الصحيح، عندما نتناول قضية الأطفال، فكيف يمكن لنا أن نقبل بها ونحن نتناول قضايا الذين قطعوا عهد الطفولة وأصبحوا على مدخل عهد المراهقة؟

نعم.. إن الصغير أصغر من أن يفهم، ولكنه أصغر من أن يفهم العمليات الجنسية بكاملها، من ألفها إلى يائها؛ لا أصغر من أن يفهم الأمور العريضة والشاملة فيها. ومن منا يدعي، نحن المطالبون بالصراحة مع الأبناء، إن عملية التثقيف الجنسية يجب أن تأتي دفعة واحدة، مرة واحدة؟ كلا، إننا نطالب الآباء بأن يلقنوا أبناءهم أمور الجنس على مراحل متعددة، تبدأ من الطفولة المبكرة، وتنتهي بعد البلوغ؛ أي على فترات تستغرق ثماني أو تسع سنوات تقريباً. والعامل المهم في هذا التجزيء لقضية الجنس الواحدة، هو اعتبار إمكانيات الصغير ومستوى فهمه. وعلى أساس هذا الاعتبار يأتي التدريج في التلقين. فالأمور التي تكلمت عنها في الفصل السابق صالحة لابن السادسة، أما الذي على أبواب المراهقة فيحتاج إلى تطور ونمو في تلك الشروح، وسأتعرض لها بعد قليل.

ومن نواحي الضعف في الآباء، غير الصريحين مع أبنائهم، أنهم يؤجلون عمل اليوم إلى الغد، والغد قد يكون بعد مدة طويلة، وأحياناً بعد فوات الأوان. يقول لك الأب "اسمع يا صديقي؟ إن أمامنا وقتاً كافياً لنخبر ابننا الحقيقة الجنسية بكاملها، فلماذا الإسراع؟ لماذا لا ننتظر حتى يكبر ويبلغ تماماً ويصبح قادراً لا على فهم الأمور فحسب بل على ممارستها بنفسه؟".

ليس هذا الكلام سخيفاً فحسب، بمقدار ما هو كلام خطير مؤلم النتائج. ابن العشر والاثنتي عشرة سنة ليس صغيراً عن فهم هذه الأمور، حتى تنتظر لما يكبر ويبلغ. إنه على أبواب البلوغ الذي قد يأتيه بين لحظة

وأخرى. فلماذا نبقى متأخرين؟ إن الفتى الذي في عمره يكون قادراً على فهم كل حقائق الجنس، شرط أن تأتي هذه الحقائق بالأسلوب المبسط الذي يناسب عمر الفتى وإمكانياته العقلية ومحيطه وظروفه. أما ترك تربة عقله دون استثمار فليس ذلك مجرد جهل، بل هو جريمة. إذ أن هذا الإهمال يبقي تلك التربة عذراء إلى أن يستغلها أصحاب المعلومات الخاطئة، رفاق السوء أو جهلاء صغار. فيصبح الفتى عرضة لمختلف أنواع التوتر الجنسي والفوضى في تدبير أمور الطبيعة والحياة.

أما الحجة الأخيرة التي قد يتذرّع بها أمامك أحد هؤلاء الآباء فهي أنه ليس من وسيلة تمنع بها ابنك من التحدث بأمور الجنس أمام الناس إن أخبرته بالحقيقة. فالابن "محطة إذاعة" ينتقل بين بيوت الجيران، ليخبرهم بما سمع وشاهد، وما علم من أمور جديدة عليه. لذلك ما أن يسمع بأن الولادة تتم في هذه الطريقة وليس في الطرق التي سمعها من قبل، حتى يعتقد أن الأمر ليس جديداً عليه فحسب بل على كل الناس، ولذلك يذهب ليخبر الناس بهذا الأمر الذي اكتشفه.

للجواب على هذه الحجة أقول أن علينا، قبل كل شيء، أن نخبر الصغير، إذ نسرد له مسألة الجنس، أنها مسألة لا تبحث أينما كان، وأمام كل الناس. نعم، إن الجنس ليس عيباً، ولكنه أمر مستور، يجب أن يظل بين الأفراد، ولا يقال أمام الجماعات. وأي صغير، يزيد عمره عن السادسة، يفهم تماماً أن هناك أموراً يجب ألاّ تذاع بين الناس وأي طفل، بعد السادسة (إن لم نقل قبل السادسة أحياناً) يدرك تماماً أن رغبته في

الذهاب إلى المرحاض تقال للأم سراً وليس علناً في حضرة الزوار. وقلما تستطيع الأم أن تضع في عقل ابنها بذرة الإيمان بأن الذهاب إلى المرحاض ليس عيباً ولكنه مع هذا سر، يجب أن يكتم، كذلك تستطيع هذه الأم، أو يستطيع الأب، أن يقنع الصغير بأن الجنس سر، ولكنه ليس عيباً.

وأرغب في هذا المجال أن أذكر للقارئ الكريم مثالاً حسياً قرأته في بعض البحوث السيكولوجية في موضع الجنس.

قال الكاتب أنه كان مرة في زيارة عائلة صديقة له، في عصر يوم من الأيام. وكان ابن العائلة الصغير، البالغ من العمر عشر سنوات في المدرسة الابتدائية. وعند الساعة الرابعة دخل الابن الغرفة، فقامت أمه تعرّفه إلى الزائرين، معتزّة به، بذكائه وجماله، ومفتخرة بما أنجبت. وكالعادة في هذه السن، تكلم الفتى كثيراً، بمواضيع متفرقة لا يجمع بينها شيء، ثم صمت، وانتقل إلى فنجان الشاي ليشربه ويأكل البسكويت الذي معه. وفجأة نظر الفتى إلى الحاضرين نظرة من يعرف أمراً خطيراً ولا يقوى على كتمانه، فوضع الشاي جانباً وقال بصوت مرتفع "هل تدرون ماذا أعرف أنا؟ إنني أعرف كيف يأتي الأطفال إلى العالم. نعم أنا أعرف ذلك تماماً!".

ساد الغرفة صمت، وهو صمت مشوب بالخجل. وراح كل من الحاضرين ينظر في فنجان الشاي الذي يحمله! وأرادت الأم أن تنقذ الموقف فقالت لابنها مبتسمة: "أنت تعرف ذلك يا حبيبي حسناً.

فلنتحدث في ذلك وفي وقت آخر. إننا الآن مشغولون بمواضيع أخرى". وبالطبع غيّرت الأم الموضوع، وعدنا نتكلم في قضايا ثانية.

ولو كانت الأم ذكية كفاية لما اكتفت بذلك، بل لكانت أخذت ابنها إلى غرفة أخرى وأفهمته أن موضوع الولادة لا يذاع بين الناس، وأنه يحسن به أن يبقيه لنفسه، ويخبرها به حالما يكونا وحيدين، ولأفهمته أيضاً أن الناس الحاضرين يعرفون كل شيء عن هذا الموضوع، ولا حاجة لهم لإرشاداته هو.

إنها لم تفعل ذلك، بل اكتفت بما قالت له من أن الوقت غير مناسب؛ لذلك ما أن صمتت لحظة واحدة، حتى عاد الصغير يصيح في الحاضرين من جديد "والآن سأخبركم كيف تتم الولادة، ما دمتم صامتين. نعم إني أعرف الطريقة من أولها، عندما يريد الأب أن يضع لعائلته طفلاً يحضر امرأته ويجلس فوقها، ثم.."

وصمت الطفل من نفسه، دون أن يطلب منه أحد ذلك، وعلى حين فجأة، كأنه أدرك أنه وصل إلى نقطة يجب أن يخجل من البوح بها علناً أمام جمع كبير من الرجال والسيدات. أما أمه فأتت إليه وشدّته من يده وأخذته إلى الغرفة الثانية. ومن تلك الغرفة سمعنا بكاءه، وعرفنا أنه ضرب ضرباً مؤلماً. ثم عادت إلينا بعد حين محمرّة الوجه خجلاً.

ويتابع راوي القصة، وهو طبيب صاحب اختبار واسع في هذه القضايا، إنه بعد ذهاب الزائرين من ذلك البيت بقي قليلاً، وطلب من

المرأة الإذن، بصفته صديق العائلة، بمحادثتها حديثاً صريحاً. ثم طلب منها محادثة طفلها الذي كان قد أرسل إلى غرفة النوم قصاصاً وكان الطبيب، كما يقول، متلهفاً على جمع المعلومات التي حصل الصغير عليها، وعلى معرفة مصدرها.

لم يستطع الطبيب حمل الصغير على الكلام إلا بصعوبة بالغة؛ فقد عرف الصغير نتيجة الكلام في هذه المواضيع! ولكن بعد أن بدّد الطبيب خوفه بدأ يتكلم. قال أنه أخذ المعلومات من صديق له، في المدرسة، يكبره عدة سنوات. وقد أخبره ذلك الصديق أن الرجل يجلس فوق المرأة... ثم يبول عليها، فتحمل من هذا البول طفلاً. وبعد مدة يأتي الطبيب بحقيبته السوداء، ويحضر للمرأة الطفل.

إن هذا المثل الواقعي يعطينا فكرة حسنة، خاصة نحن أبناء الشرق العربي، على أن الصغير الذي لا يعرف الحقيقة الصحيحة عن الجنس قد يفضح والديه أمام الناس تماماً مثل الصغير الذي يكون قد عرف الحقيقة، إن لم نقل أكثر. فلو أن كل صغير يطلب إليه، عندما يخبر بالحقيقة، أن يبقيها سراً لما ذاع الأمر. ولكن معظم الصغار، مثل هذا الذي روينا قصته، لا يخبرون بذلك لأن المعلومات تأتيهم خاطئة، ومن مصادر خاطئة، لذلك لا يعرفون أن عليهم كتمانها.

والقصة – من ناحية أخرى – تشير لنا بأن الأم الجاهلة تكون عرضة للسخرية، وأن الأم الحكيمة تعرف كيف تمنع ابنها من الكلام في

هذه المواضيع قبل أن يبوح بها أمام الناس؛ وأن قصاص الابن بعد التكلم بها لا يجدي.

ويخبرنا الطبيب راوي القصة فيما بعد أن هذا الفتى كان وحيداً لأهله. ووحدته من الأسباب التي دعته إلى تلقي الأخبار من رفاقه الطلاب. والحقيقة أن الطفل الوحيد مشكلة كبيرة في فترة النمو هذه، فترة قبيل البلوغ، وأصعب معاملة من الطفل الذي يعيش في بيت فيه أبناء آخرون.

من أخطار هذه الوحدة أن الطفل يفتقد مرافقة ومصاحبة صغار مثله، من الجنس الآخر. وهذا الافتقار قد لا يظهر أثاراً في هذا العهد. ولكنه يسبّب أخطاراً تبقى كامنة إلى أن يأتي عهد المراهقة، فتبرز واضحة بعد البلوغ. إن الوحدة قد تخلق في الصغير اهتماماً كبيراً بنفسه– اهتماماً يصل إلى حد الأنانية. وتخلق من ناحية أخرى اهتماماً بالغاً بالجنس وقضاياه بحيث يصبح الجنس، بعد البلوغ، محور الحياة. وتخلق، أخيراً، خجلاً كبيراً بحيث يصبح الصغير، في المراهقة، كتوماً لحيويته الجنسية ولأنانيته الفردية، فينكمش على نفسه، ويصبح عالماً قائما بذاته. وهنا يستعيض عن العلاقات الجنسية المألوفة بالعادة السرية التي يكون فيها هو الفاعل والمفعول به في وقت واحد. فيصبح الفتى شاعراً بأنه محتاج للإناث، وكل ذلك راجع إلى خجله وحيويته الزائدة وأنانيته واعتداده بنفسه.

صحيح أن العادة السرية ليست وقفاً على نوع خاص من صغار المراهقين، ولكنها أكثر ما تكون متفشّية بين الصغار الوحيدين لعائلتهم، ثم، بدرجة ثانية، بين الصغار الذين كل الأخوة من جنس واحد.

لهذا فأنا أدعو الوالدين إلى أن يوفروا لأبنائهم، إن كانوا وحيدين، أصدقاء صغاراً يلعبون معهم، من الجنس الآخر، ليصرفوهم عن الوحدة المؤلمة. ويجدر بهؤلاء الأصدقاء أن يكونوا بسن تناسب سن الوحيد. وهنا علينا ألا ننسى أن الفتيات أنضج عقلياً من الفتيان؛ ففتاة العاشرة تصلح صديقة لفتى الثانية عشرة. وإلا، فأنا أناشد الأهالي بالتغلب على فكرة تقليدية ضارة، في المجتمعات الشرقية، تقول بعدم وجوب إرسال الابن إلى المدارس الداخلية وهو صغير. عليهم أن يرسلوا أبناءهم الوحيدين على مثل هذه المدارس، إن كانت مختلطة، ليعوّض الصغير فيها عمّا يفوته في البيت من عدم صحبة بنات من الجنس الآخر.

إن عادة فصل الذكور عن الإناث – تلك العادة التي أخذناها عن الجاهلية، ولا نزال نتمسك بها بالرغم من أن العلم الصحيح كفّرها وأثبت خطأها – التي يتمسك بها رجعيو بلادنا المحافظون على القديم حتى ولو كان ضاراً بالجيل الجديد يجب أن نخرقها في هذه المرحلة، مرحلة الوقوف على أبواب البلوغ؛ فاللقاء الاعتيادي الحرّ الطبيعي بين الجنسين، في الحياة اليومية العادية – حياة المدرسة والملعب والبيت والحديقة والسينما والشارع – يؤهل الصغير أن يتعود على هذا الاختلاط الذي سيواجهه بعد قليل، بعد أن يصل إلى عهد المراهقة، ويحررّه من الخجل الذي إن بقي

مسيطرا عليه في سن البلوغ يقوده إلى الانكماش على نفسه والانقباض عن الناس، وإلى تعاطي العادة السرية كأنها منتهى لذة الجنس. ومهما كانت مساوئ التعليم الاختلاطي في المدارس الابتدائية، إلاّ أن حسناته تفوقها عدداً، وتعود على أطفالنا بفوائد غزيرة. يكفي أنه يزوّد الصغار لما يصبحون أهلاً للحب والإنتاج، بالمعرفة الصحيحة والتحرر من الخوف والخجل والجرأة اللازمة لمجابهة تطورات قوى الجنس فينا.

إن عهد الوقوف على قيد خطوات من البلوغ عهد خجل في الإنسان، فيه يشعر الفتى، أو الفتاة، أنه على أعتاب ثورة مثيرة، أو انقلاب خطير، في جسمه وقواه الجنسية والعقلية. لذلك يخجل من هذا التطور. ويجب ألا نستغرب هذا الخجل من ابن الثانية عشرة من عمره. فالرجل منا الذي يسافر من محيط إلى محيط جديد يشعر بالخجل في الأيام الأولى، لأنه غير معتاد على المكان الجديد، وعاداته ومتطلباته. فكيف الحال بالغلام الصغير الجاهل لأمور الحياة غير المتعود على هذه التطورات في جسمه. إن خجله هذا إذن ناتج عن خوفه وجبنه؛ فالجبن يجمع بين الخوف والخجل.

يلعب الصغير مع الصغيرة، وهما طفلان، طيلة ساعات النهار دون أن يشعر بأي خجل، لأنهما لا يشعران بأي فرق حاد بينهما. أما الآن، بعد أن عبرا الطفولة وقاربا النضوج، فهما يعيان هذا الفرق بينهما. يجيء الوعي بالفرق إثر استيقاظ قيم الحب والجمال ورغبة الجسد، في أحشائهما.

فالصغير في هذا العهد مولع بالبحث عن الأشياء العليا والمثل السامية – المعرفة والحب والتقديس والإيمان – نعم إنه يجهل حقائق هذه الأشياء. يجهل حقيقة الدين ولكنه يؤمن به. فيذهب إلى الكنيسة والجامع دوماً. يجهل اللذة الجنسية ولكنه يحسد المتزوجين. يجهل اختبار الحب ولكنه يتمنى لو كان يحب.

إن هذه اليقظة لمشاعره وقواه تبعث في الصغير حيوية زائدة – حيوية لا ينقص منها استخفافه بأمور الجنس ولا خجله من طرق الموضوع. فهو يشعر بالحيوية في داخله. إنه يريد أن ينمو ويكبر. يريد أن يبرهن للعالم أنه رجل كامل. يريد أن يعلو على النجوم بأحلامه أو إلى السماء بتخيلاته، غير أن كل هذه الحيوية تظل موسومة بطابع أسود قاتم طابع الحزن.

إن وعي الحب مثلاً، دون الحصول عليه؛ وعي الحقيقة بأن البالغ يلتذ بقواه الجنسية بينما هو لا يستطيع ذلك؛ إدراك مقدرة غيره على الزواج بينما هو بعدُ طالباً صغيرا، كل ذلك يبعث فيه مرارة الحزن القائمة على نوعٍ من الحسد، ومن الغيرة لما ليس له، بينما هو لغيره. فتغريد الطيور الذي يشجيه ينزل الدمع من مآقيه. والجمال الذي يثير عاطفته يطبع الكثير على وجهه.

لذلك نشعر أن علينا أن نكون في غاية اللطف مع أبنائنا في هذا السن؛ فكل واحد من هؤلاء الأبناء يمثل مشكلة حية قائمة بذاتها. إنها مشكلة الجاهل الذي فيه شعور زائد، ولا يستطيع أن يعبر عن هذا الشعور

لعدم اختباره. وهي مشكلة مَنْ فيه رغبة زائدة ولكنه غير قادر على استثمار هذه الرغبة؛ فعلى المعلم وعلى الأب والأم أن يكونوا صبورين مع هؤلاء الصغار. وعليهم، هنا أيضاً، وأكثر من أي وقت مضى، أن يكونوا صريحين.

إن الولد في هذه السن لن يسأل من تلقاء نفسه.. الطفل يسأل والبالغ يسأل.. أما من تخطى الطفولة ولم يبلغ بعد فلن يسأل من تلقاء نفسه لأنه يفتقر إلى الشجاعة الكافية. فكما علينا ألاّ نترك هذا الصغير دون أن نجيب على أسئلته، علينا ألاَّ نتركه دون أن نخبره بالحقيقة، حتى وإن لم يسأل من تلقاء نفسه.

إن تركه في جهله، يعني تركه في شكه وتوتر تفكيره وحيرته من أمره وعلاقاته بالناس. وستقوده هذه الحيرة، حتماً إلى أن يلجأ إلى أناس لا يخجل منهم خجله من والديه – إلى رفقاء السوء – أصدقائه الجاهلين الذين يزيدونه جهلاً. وتقوده، من ناحية أخرى، إلى اللجوء إلى كتب الغرام الرخيصة الخليعة التي يعتقد الفتى أنها ستحل له مشاكله فإذا هي تزيد في هذه المشاكل وتضيف إليها صوراً أو أقاصيص تبعث فيه الشهوة التي لما تكتمل بعد. فالكتب الرخيصة، مثل رفاق السوء، مصدر خطر كبير على أبنائنا وهم على عتبة المراهقة. أما إن دخلوا مرحلة المراهقة دون أن يتخلصوا من هذين الخطرين فتصبح القضية أكثر من خطر، إذ أنها تصبح مأساة خطيرة جداً.

من أول واجبات الآباء والأبناء الاعتراف: الاعتراف الصريح الجريء الصحيح. إن هذا الاعتراف هو من أسرار نجاح الحياة العائلية، لأنه يقوم على الثقة وينتهي بالاستراحة من الكثير من الهموم والمشاكل. أنه يريح الصغير من همومه، ويثقفه ثقافة ينشدها، ويوضح له ما هو مقدم عليه.

لا طبيب العائلة ولا معلم المدرسة يقدران على إجراء هذا الاعتراف مع الصغير؛ فالأب والأم هما الوحيدان المؤهلان لهذا الموضوع. فهما المصدر الأخير لراحة فكر الصغير لأنهما منتهى ثقته. ولهذا دعا الدكتور غاليشيان، في كتابه المشهور "فن الحب والزواج" المطبوع منذ مدة في الولايات المتحدة، دعا إلى نشر الاعتراف الجنسي في البيوت مثل انتشار الاعتراف الكنسي عند الطوائف المسيحية. وكما يستريح الخاطئ بعد اعترافه إلى القسيس كذلك يستريح الابن، ويريح بالتالي أباه وأمه.

وعلى الوالدين أيضا ألا يكتفوا بالنظريات. عليهما أن يُفهما الابن كافة التفاصيل عن الحياة: الحب، الفرق بين الذكر والأنثى، العلاقة بينهما، الخ...

ولكن هذا لا يتمّ بصورة واضحة مفيدة إلا بعد أن يفهم الوالدين نفسية ابنهما فهماً صحيحاً، وأن يفهما علاقاته مع غيره من الناس، خاصة الجنس الآخر، وأن يكونا مطّلعين على ماضيه، وعلى كافة حقائق تكوينه الجنسي خاصة والجسماني عامة.

ثم، إلى جانب هذه المعرفة اللازمة، يجدر بهما أن يشعرا نحو الابن بعين مليئة بالاهتمام والمسؤولية والرعاية الواجبة. وما لم يفهما أن واجبهما هما، وليس أي إنسان آخر، أن يعالجا هذه المسائل في ابنهما، وبأسرع وقت، تظل معالجتهما للقضية معالجة مبتورة، لأنها تفتقر إلى الأساس الصالح.

أما إنْ وعى الوالدون كل هذه الأمور وشعروا بها بإخلاص، وعمموا نظام الاعتراف الصحيح مع أبنائهم لاستراحت البلاد من آلاف الحوادث الزوجية الفاشلة، التي تنتهي بتحطم العائلات، وتقويض أسس البيوت، وأحياناً تؤدي إلى الانتحار أو القتل الإجرامي.

وأكاد أتخيل القارئ يتساءل الآن – بعد هذا الاستطراد في الكلام – عن قيمة المصارحة بين الوالدين وأبنائهم، عن أفضل طريقة لتثقيف الصغير، وهو على عتبة البلوغ، ثقافة جنسية صالحة.

أما الآباء الذين أهملوا هذا الأمر تماماً فأرجعهم إلى ما كتبته في الفصل الماضي، ليعتمدوا على تلك الطريقة في أخبار أبنائهم– مع أنه كان عليهم أن يفعلوا ذلك منذ سنوات، لما كان الابن لا يزال طفلاً. أما الذين أخبروا أبناءهم، وهم أطفال، ببعض الحقائق التمهيدية، ويريدون الآن متابعة ذلك، قبل أن يصل أولئك الأبناء إلى سن المراهقة، فنظريتي هي أن أهم مسألة عند الصغير في هذه السن، بعد أن يكون قد عرف الكثير من

بديهيات الحقائق الجنسية، هي معرفة حقيقة الاتصال الجنسي نفسه، أي أن يعرف العملية بتفاصيلها.

والإجابة على طلب هذه المعرفة واجبة من حيث هي ضرورية للصغير، ولكن قطعاً لدابر السبل التي قد يلجأ الصغير إليها ليعرف منها عما يريد معرفته. فإن كلمه والده في المسألة لا يعود محتاجا إلى أن يذهب إلى رفاقه مستفهما، أو أن يدمن على قراءة الكتب والمجلات الخليعة التي تضرّ ولا تنفع. ولكن عليّ أن أحذّر القارئ بأن عليه أن يدرس، قبل كل شيء، إمكانيات إدراك الصغير. فإن كان ذلك الصغير غير ناضج، من ناحية عقله كفاية، إذن عليه أن يترك مسألة مصارحته بالأمر إلى المستقبل.

وبعد، في أي عمر يجب إخبار الصغير بهذه الأمور كلها؟

إن ذلك سهل الإجابة. أفضل سن هي أصغر سن يظن الأب فيها أن الابن أصبح قادراً على الفهم. وتقدير تلك السن متروك للأب، وللأهل عموما، شرط أن يفهموا أن العمر، في هذا المجال، لا يقاس بالسنوات المجردة والأرقام الثابتة، بل يقاس بالمقدرة العقلية وإمكانيات الفهم وحسن الاستعداد. فبمجرد أن يعرف الأب أن ابنه أصبح قادراً على الفهم، عليه أن يعترف له بكل شيء. ويجب ألا يتأخر بهذه المصارحة إلى ما بعد النضوج والبلوغ، إلا إذا كان الابن ضعيف القوى العقلية، وهذه حالة شاذة. لذلك نظن أن السن المفضلة للمصارحة هي بين الثامنة والثانية عشرة بوجه عام.

والآن نأتي إلى طريقة تلك المصارحة، وهي الموضوع الأهم في كل هذه المشكلة. لا أنكر أن الأب الذي تعمّد أن يخبر ابنه بالحقيقة يجد الموقف حرجاً جداً – خاصة وأن الموضوع يجب أن يكون دقيقا وصريحا وصحيحا. ويزيد في صعوبة الموقف إن كان الأب قد كذب على ابنه في الماضي بخصوص الجنس، ويصعب عليه الآن كشف تلك الكذبة. وهنا، في هذه الحالة، أنصح الأب أن يعهد بالمسألة إلى زوجه، أو إلى طبيب العائلة. إذ أن الطفل الذي يكتشف أن أباه قد كذب عليه ويحاول الآن فضح كذبته، يظن أنه قد يكون الآن وفي هذه اللحظة يكذب عليه أيضا.

من بين الطرق المتبعة في مصارحة الأبناء بحقائق الجنس تلك الطرق التي يستعملها أبناء الريف، أو القرى القريبة من الحقول. إذ أن الصغير في تلك المناطق لا بد وأن يشاهد، من حين إلى آخر بعض حيوانات الحقل وهي تمارس الاتصال الجنسي. وعندها لا بد وأن يسأل عن ذلك، فيفهمه والداه الحقيقة، وينتهي الأمر. وإني أعرف عائلة لبنانية اضطرت في فصل الصيف للانتقال إلى إحدى مناطق الجنوب فقط ليضعوا هذا الاختبار أمام أعين أبناء العائلة الصغار. وهي طريقة حسنة لا بأس بها.

ولكن في هذه الطريقة بعض التخوف؛ فمنظر الاتصال الجنسي عند الحيوانات يثير في النفس القرف والتقزز، نوعا ما. إذ أن تلك العملية فيها الكثير من الوحشية ومن الشدة. وهذا قد يبعث أكثر من القرف في نفس الصغير، البريئة الآمنة. إذ تنمو في معتقده فكرة مخيفة عن الاتصال الجنسي، فيكبر وهو يحسب للجنس حساباً قاسياً، ولا يجسر على الزواج،

أو حتى على الاتصال دون الزواج، خشية أن ينزل إلى مستوى الحيوانات! وللتعويض عن ذلك يضطر إلى الارتماء في أحضان العادة السرية التي هي آفة سن المراهقة.

أخبرني أحد الأجانب المقيمين في بيروت أن ابنته الصغيرة كانت مرة معه في الحقل، وشاهدت منظر كلب وكلبة يتصلان جنسياً. وكان هذا الاختبار الأول من نوعه بالنسبة لها. فتألمت من المنظر كثيراً وراحت تبكي بكاءً مراً. فأخذها أبوها إلى مزرعة صديق له في الجنوب، ووضعها أمام جماعة من الخنازير الوسخة. وأشار إلى الخنازير بيده وقال "هل تشاهدين الخنازير وهي تأكل، وكيف تأكل وسخها؟" فقالت "نعم. أني أشاهدها كيف تمرغ أنفها بالأكل ثم تأكله، مع أننا نعرف أن هذا مضر لنا".

قال لها والدها: "ونحن أيضا نأكل أليس كذلك؟ إذن أكلنا وأكل الخنازير عملية واحدة، ومع هذا بيننا وبينها فرق كبير. نحن نأكل دون أن ندنّس الأكل وهي تأكل في غاية الوساخة. وهكذا مسألة الاتصال الجنسي. نحن والحيوانات نتصل، ذكراً مع أنثى. إنما، تعتمد الحيوانات على وسيلة فيها قسوة ووحشية وبشاعة، بينما يستعمل الرجل مع زوجته الرفق والمحبة واللطف عندما يتصلان لينجبا ولداً".

وقد وافقت صديقي الأجنبي على أن مثل هذا الحديث يريح فكر الصغير عموما. ولكن لما كان ليس كل الآباء مثل هذا الرجل في قدرتهم على تخفيف المسالة عن أبنائهم فقد تظل قضية البرهان الجنسي المستمد من الحيوانات فيها الكثير من المخاطر. وحري بنا أن نذكر هنا أن طلاب

صفوف علم النفس في معهد جامعي بالشرق أجروا إحصاء طريفاً، منذ سنوات، انتهوا به إلى أن وجهة نظر الفلاحين وأبناء الريف عموما، تكون أقسى وأشد، نحو العلاقات الجنسية، من وجهة نظر أبناء المدن. وهذا يرجع لما يشاهدونه دوما من الاتصالات بين الحيوانات.

لذلك يكون من الأفضل البرهنة على عملية الجنس بواسطة الأزهار أولاً. فأفضل شيء هو أن يُري الأب أبناءه الفرق بين ذكر النبات وأنثاه. ثم يشرح لهم حاجة الاثنين بعضهما إلى بعض ثم يريهم اتصال الذكر مع أنثاه – ذلك الاتصال اللطيف الرمزي. ومن بعد ذلك يشرح لهم الأب الفرق بين تركيب الرجل والمرأة، وحقيقة الحاجة الموجودة بينهما، وكيف أن بينهما نوعا من العلاقات، نسميها الحب، تشبه حب الصغير لأخيه أو لوالديه. ولا بأس أن أُخذ الصغير إلى حديقة الحيوان، أو إلى مزرعة ما، لمشاهدة اتصال الطيور أو بعض الحيوانات الناعمة الأليفة، كالأرانب مثلاً؛ فذلك يبسط المسألة قدر الإمكان.

أخيراً، وقبل أن أنهي هذا الفصل، أحب أن أنبّه القارئ إلى أن انكماش الصغير عن أمور الجنس الذي ينتشر بين الصغار قبيل وصولهم سن المراهقة، يتضاءل ويزول منهم شيئا فشيئا، إن كانت حالتهم طبيعية، كلما قاربوا عهد البلوغ. ومقابل هذا يبدأ فيهم ميل غير مألوف إلى أمور الجنس. وتظهر عليهم أمارات رد الفعل إزاء مغريات الجنس. الرغبة في مصادقة الفتيات! التهيج عند مشاهدة المواقف المغرية، وغير ذلك. إن كل هذه المظاهر تدل على قرب الصغير من البلوغ. ولذلك علينا أن نهتم بهذه

الظواهر، وأن نشجع الصغير على أن لا ينكمش على نفسه. ويتم لنا ذلك خلال بقائنا معه مدة طويلة، ومحادثته بكل الأمور التي تهمه، لإخراجه من محيطه المنعزل وإنزاله في المحيط الأوسع منه – محيط العالم. وعلينا أيضا أن نشجعه على الرياضة والنزهات، والمرح مع رفاقه، والتعب من جراء الشغل اليدوي الطويل، والاستحمام بالماء البارد، والسباحة في فصل الصيف، والتزلج في الشتاء.

الفصل الرابع

الفتاة على أبواب البلوغ

التمهيد للعادة الشهرية

أحببت أن أخصص للفتاة، وهي على أبواب البلوغ، فصلاً خاصاً، لأن بين الفتاة والفتى، في هذه المرحلة المهمة من حياة الإنسان، فوارق كثيرة لا يجوز التغاضي عنها بإدماج الحديث عنها في فصل واحد.

إن فرويد، العالم النفساني لأمور الجنس الأول، هو واضع البرنامج التحليلي للتطورات النفسانية الجنسية في جسم الإنسان. وقد استخلص من اختباراته أن الصبي والبنت، في نموهم الجنسي، قلّما يختلفان عن بعضهما بعضا، قبيل البلوغ. وقد تبنى العلماء الذين أتوا بعده آراءه هذه، مع إجراء تعديلات بسيطة حسب الاختبارات الحديثة.

غير أن المدرسة الجنسية الحديثة لا ترضى بهذا الرأي وتجري عليه تعديلاً أساسياً. فنحن اليوم، في القرن العشرين، نؤمن بأن وراء التشابه العام بين تصرفات الذكر والأنثى، في سن ما قبل المراهقة بقليل، فروقات عميقة واضحة لا يجوز إغفالها ويبلغ هذا الفرق أقصاه في ما يمكن أن نسميه "ظاهرة الذكورة"؛ فالصغار يفتخرون بأعضائهم التناسلية. ويصبح

هذا العضو محور تفكير الصغير واهتمامه لشدة مراقبته له وعنايته بعدم إيذائه، وخجله من إظهاره للناس، وشعوره، بسببه، بالفرق بينه وبين الإناث.

وتتصرف الفتاة، مقابل هذا تصرفاً معاكساً، لخلو جسمها من مثل هذا العضو؛ فبدلاً من أن تفتخر بعضوها التناسلي غير البارز كما يفعل الغلام، ينمو عندها شعور بالحسد للصبيان على ما لهم، وشعور بالنقص لما ليس عندها.

هذا هو الفارق البارز بين فتى وفتاة قبيل المراهقة. الأول يعتز بما عنده، والثانية تكتئب لما ليس عندها. وهناك فارق آخر، بين الذكر والأنثى؛ فنحن نعلم أن الفتى والفتاة، في هذا العهد، لهما حيوية بارزة. أنهما يكونان نهمين إلى الحيوية والنشاط. ولكن حيوية الفتاة تختلف عن حيوية الفتى في أنها تنزع إلى حب إثبات الوجود والظهور. بينما تنزع حيوية الفتى إلى الاعتداء والسيطرة.

تمتلئ الفتاة قبيل المراهقة بالآمال العريضة. تقودها تلك الآمال إلى أن تسعى لأن تحقق شيئاً ما. وتكون آمالها أكثر مما تستطيع أن تحمل. لذلك تبحث عن أشخاص لتحبهم أو لتكرههم. إنها تريد أن تستعمل عاطفتها، سلباً أو إيجابا. إذ أنها تبدأ في محاربة المحيط الذي خدمها لتسيطر عليه بشخصيتها وأنوثتها، لأن تشعر أنها ليست طفلة حتى يدللها الناس

ويلاعبونها، ولا هي فتاة ناضجة ذات إغراء صارخ حتى يقعوا صرعى إغرائها.

اهتمام الفتاة بنفسها يجعلها تسعى لأن تضعف من صلتها مع أهلها فتغتنم الفرص لأن تنتقد والديها، وأن تمسك المآخذ على تصرفاتهما نحوها. وتحاول أن تستقل عن أمها، لتبرهن أنها فتاة ناضجة وليست طفلة. وتتميز معظم تصرفاتها بهذا السعي للاستقلال وتكوين شخصية، أمام الناس، قائمة بنفسها. غير أن هذا لا يمنعها عندما تكون خارج البيت مع عائلات صديقاتها، أن تدافع عن أهلها وعائلتها. وأحيانا يقودها ذلك الغرور إلى أن تحبك الأساطير عن أهلها- عن شجاعة أبيها، عن مهارة أمها، عن علو مركزهم الاجتماعي، الخ... ويسمى العلماء هذه الصفة "الرومانس العائلي" أو العصبية العائلية، بشكل ساذج.

ذلك أن الفتاة، إذ تسعى لأن تستقل، تجد أنها غير قادرة على ذلك؛ فتضطر لأن تعوض عن هذا الفشل بأن تشغل نفسها في حبٍ ما حب العائلة الوهمي، أو حب بيت صديقة من صديقاتها، أو حب إحدى معلماتها. وقد أدت هذه الغراميات البريئة إلى عشرات حوادث سوء الفهم. فكثير من الناس، خاصة الفتيات، يحيكون الإشاعات حول علاقة تلميذة ما بمعلمتها، مع أن الأمر لا يتعدى ما ذكرناه- من محاولة الفتاة التعويض عن ضعفها بالتعلق بشخص آخر يعجبها، وكثيراً ما يكون هذا الشخص معلمتها.

ويؤدي سعي الفتاة إلى الاستقلال عن أمها إلى أن تتعلق أكثر من الماضي بأبيها. وهذه الظاهرة طبيعية ولا خوف فيها. وتعلق الفتاة بأبيها وتخليها عن أمها أفضل من تعلقها بأمها وتخليها عن أبيها. ذلك أن مثل هذا التعلق بالأم ينمي في الفتاة عادة حب الجنس– حب الإناث– وبالتالي يصبح عندها شذوذاً جنسياً ليس من السهل التخلص منه.

أما أن ازدادت الفتاة تعلقاً بأحد أخوتها الذكور فإن ذلك يخشى منه أن يبعث في صفاتها ترجلاً، وهو أمر يفقد الفتاة الكثير من أنوثتها وحيويتها المغرية.

وتسعى فتاة هذا العهد لأن تجعل كل شيء يظهر لائقاً وناضجاً لتظهر هي نفسها ناضجة وكبيرة ومحترمة. إنها تقلد الفتيات البالغات تقليداً أعمى. وبينما هي تسمع منهن أخبار مغامراتهن– مع أنها تعرف أحيانا أنها مغامرات كاذبة– تحاول في نفسها أن تبحث عن الطريق الذي به تصل هي أيضا على مغامرات من هذا النوع؛ فتتصنع في تصرفاتها ولبسها، تقضي الساعات الطويلة أمام المرآة، قبل أن تخرج من البيت. لا تترك نوعاً من أدوات الزينة والتجميل إلا وتستعمله، ولو خفية. وتحوّل حياتها إلى مسرح، بحيث يصبح كل عملها تمثيلاً. تلعب دور الممثلة التي لا تقول كلمة ولا تأتي عملا إلا بانتظار التصفيق والإعجاب. تدّعي الحب لتغار صديقاتها منها. تتكلم الفصحى والحكم ليعتقد الناس أنها مثقفة. تحمل الكتب ليظنوا أنها أديبة تنزل إلى البحر ليتوهموا أنها رياضية.

وتهتم الفتاة بالسرّية، فهي تلاحظ أن كل امرأة ناجحة لها سرّ تخفيه عن معظم الناس ولا تبوح به إلا لصديقاتها العزيزات. إذن لا بدّ لها هي أيضا من أن يكون لها سر. فتحيط نفسها بأسرار كاذبة لا أساس لها من الصحة، ولما كان السر يحتاج إلى شريك، لذلك فهي تختار فتاة في عمرها، لتبوح لها بسرّها، وتشاركها إياه طالبة منها أن تحافظ عليه، مع أنها تدري أن تلك الفتاة ستذيعه بين الناس. مثلما هي تذيع أسرار صديقاتها. وتكون معظم الأسرار هذه ضد الأم! وإن لم تكن كذلك فهي ضد الأخت الكبرى (التي تزعج الصغرى بملاحظاتها وعدم اهتمامها بها) أو ضد طالبة في صفها. إنها تنتقم منهن لأنهن يحافظن على أسرارهن ولا يكشفنها أمامها. فكثيرا ما تسعى الفتاة لأن تعرف سر أمها أو أختها، علّها تقلدها، دون جدوى. لذلك فهي عندما تحيط نفسها بالأسرار لا تنسى أن تنتقم من هؤلاء!

ومهما تحاول الأم أن تقنع ابنتها بأنها لا تبغي إلا مساعدتها في تطورها وسيرها نحو سن البلوغ، وفي تعريفها على العادة الشهرية التي ستصل إليها سريعاً. تظل الفتاة تشك بهذه المساعدة، وغير مقتنعة بثقة أمها. وهي تفضل أن تنال هذه المساعدة من فتاة أخرى مثلها، لها الأسرار والمشاكل نفسها. ولا تريد صديقة تسرّ لها بأسرارها، بل تريد مشيرة تتبادل وإياها الرأي والأحلام.

وبذا يتحول تفكير الفتاة تحولاً جوهرياً. لا يعود يهمها بحث الفرق بين أعضائها التناسلية وأعضاء الذكور. بل يهمها الفرق بين أعضائها اليوم

وأعضائها كما ستكون بعد قليل، بعد أن تتعرف إلى هذا الشيء الذي يسمونه العادة الشهرية. إنها تراقب نمو أعضائها، خاصة ثدييها، باهتمام. وتلك المراقبة تأخذ الكثير من وقتها بحيث لا يبقى متسع لحسد الصبي على ما عنده وليس عندها. فقد أصبح لها أشياء ناتئة ليست له!

وبعد أن يكون الجنس من الأمور الثانوية التي لا يهمها الكلام فيها كثيراً، يصبح الشيء الرئيسي لبحثها وأحاديثها مع صديقاتها. فتجلس معهن للتنور بهذه الأمور. ويصبح الجنس مقياس كافة مشاكلهن. وتسعى كل منهن إلى صنع المغامرات والاعتداد بها. وتدخل تلك المغامرات مرحلة الكتابة. فتتراسل الفتيات فقط لتروين أخبار هذه الروايات غير الصادقة. وتسجل كل منهما يومياتها باهتمام كأنها شخصية سياسية تحفظ أخبارها للتاريخ والمستقبل! وتكثر الرموز في هذه المذكرات: "هو" و"الشيء" و"هذا"، ولكل رمز معناه الخاص.

وتنمو بذلك العلاقات بين الفتيات أنفسهن، وإلى هذا الحد ليس في هذه العلاقات أي ريبة أو خوف. إلا أنها، في سن المراهقة، تتحول إلى اتجاهين لا ثالث لهما: إما أنها تصبح علاقات بريئة قائمة على الصداقة، أو تصبح علاقات مريبة قائمة على الشذوذ.

أما العلاقات البريئة فهي تقدس الصداقة، وتجعلها أشرف قيمة من الحب نفسه. وأنا أعرف فتاة، وأكاد أقول قديسة، تجعل للصداقة أسمى مقام في علاقات البشر. وهي تفضل أن تستخف بالفتى الذي تحبه على أن تستخف بالصداقة التي تؤمن بها.

أما الشذوذ فينتج عن نمو هذه العلاقة بين الفتيات بحيث تأخذ منحى جنسياً. وحوادث هذه العلاقات كثيرة سنتعرض لها في فصل تالٍ.

ومن أخطار مرحلة قبيل البلوغ؛ بلوغ واحدة من الفتاتين الصديقتين قبل الأخرى فإن هذا قد يؤثر على الثانية فيجعلها تسعى إلى البلوغ، ولو على حساب الطبيعة والواقع. لذلك تقبل على الاتصال بالرجال وهي بعد غير صالحة لذلك. ومعظم حالات البغاء المبكر، وحمل النساء غير المتزوجات، ترجع إلى هذا السعي الخاطئ، لاختصار الوقت والتعدي على سير الزمان.

ولا خوف على فتيات هذا الوقت من إقامة علاقات الصداقة مع الذكور؛ فكل شيء يهمهن هو الفضولية. إنهن يصادقن فقط ليعرفن الحب، لا لأنهن يرغبن أن يحببن! فإلى جانب صفات هذه المرحلة في الفتاة: الحيوية، والعصبية الزائدة، والنرفزة، وزوغان التفكير، وغير ذلك- توجد عندهن رغبة في أن يعرفن كل شيء عن الذكور.

ومثال الحب عند الفتاة، في هذه المرحلة، عاطفي خيالي أكثر من اللزوم. إن مجرد ابتسامة شاب لها ترضيها؛ لذلك تخلق كل فتاة قصص رومانسية لتعيش شهوراً طويلة على التفكير بها. ويصبح لها أبطال حياة تتمسك بذكراهم، ويتحول الحب عندها إلى فروسية جميلة، في الأحلام. ويأخذ الفارس الجميل الممشوق القوام، الشبيه بممثلي هوليوود، مكان اللعبة التي كانت الفتاة تلعب بها وهي طفلة.

الفصل الخامس

المراهقة .. عهد براءة وسذاجة

يبدأ البلوغ عادة عند الصبيان في سن الثالثة أو الرابعة عشرة وفي البنات في الحادية أو الثانية عشرة، والبلوغ في علم التكوين الجسماني، هو السن الذي به يبدأ الشخص ذكراً أو أنثى في الحصول على القدرة الطبيعية التي تجعل بإمكانه أن ينجب أبناءً. والبلوغ هو فاتحة عهد المراهقة. وتظل المراهقة عدة سنوات– وليس لها زمان محدود، بل تختلف بين إنسان وآخر. وبعد المراهقة يأتي دور النضوج التام– اكتمال الرجولة أو الأنوثة؛ وهي، في الرجل والمرأة، بعد سن العشرين.

والمراهقة هي آخر مراحل مسؤولية الآباء أمام الأبناء بخصوص قضايا الجنس. نعم، إن الوالدين يظلان مسئولين عن العناية بكافة شؤون أبنائهم طول الحياة، خاصة في بلاد الشرق حيث يظل الابن مرتبطاً بعائلته حتى بعد أن يؤسس هو بنفسه عائلة جديدة. إلا أن هذه المسؤولية الباقية لا علاقة لها بالجنس، بالرغم من علاقتها باختيار الزوجة، أو غير ذلك من شؤون العائلة.

ولكن مرحلة المراهقة ليست أسهل فترات الحياة؛ فهي مليئة بالمخاطر والصعوبات، بحيث تستدعي من الوالدين حنكة ودراية وعناية زائدة مثل باقي مراحل الحياة الجنسية، إن لم نقل أكثر. إنما يوجد في هذه الفترة، حقيقة تخفف من صعوبتها نوعاً ما، وهي أن الوالدين يستطيعان، على عكس باقي الفترات السابقة، أن يجابها الابن، كشاب أو شابة، على صعيد واحد من التركيب الجنسي. إن هذه أول فترة يكون الابن والأب فيها يمتلكان المقدرة الواحدة في أمور الجنس. والفارق الوحيد بينهما هو الاختبار الذي يمتلكه الأب، دون الإنجاب اختبار الحياة الطويل. وهذا الأمر يسهّل الحديث بينهما ويجعل المشورة المتبادلة أمراً مألوفاً.

ومما ألاحظه في بلادنا أن الكثيرين من الوالدين يعارضون في أن يخرج أبناؤهم أو بناهم مع أصدقائهم من الجنسين. أو هم أحياناً يهزأون من هذا الخروج ويجعلونه موضوعاً للسخرية. مع أن الأبناء – في سن المراهقة – يكونون في حاجة شديدة إلى الخروج المختلط. ومن الخطأ أن نمنعهم من ذلك. إذ أن معارضة الوالدين تترك في نفس الأبناء شعوراً بالنفور عن هذا الاختلاط، فيعتقدون أنه شيء محتقر معيب لا يجوز تعاطيه؛ وإن خرجوا فهم يحافظون على سرية الأمر دون أن يخبروا والديهم بذلك. وبعمل كهذا تفقد هذه العلاقات المختلطة، بين الجنسين، عذريتها وقداستها، ويصبح الشاب أو الفتاة ينظران إلى أمر صداقتهما من خلال النظرة الجنسية البحتة وهذا خطر كبير خاصة وأن ذلك الشاب أو تلك الفتاة لا يزالان في أول عهدهما بالحياة الجنسية، وليس لهما شيء من اختباراتها.

من الطبيعي جداً أن يسعى الفتى أو الفتاة المراهقة إلى البحث عن صديق، سعياً حثيثاً. إذ أن كلاً منهما، في هذه الفترة، يشعر أنه قد دخل عالماً جديداً لا يجوز أن يخطو فيه دون اختبار، ودون رفقة شخص من الجنس الآخر. وتفوق هذه الرغبة الطبيعية في الحصول على صديق، رغبة الطفل الساذجة في الحصول على رفيق يلعب معه.

وإن كان الوالدان قد أمّنا لابنهما ثقافة جنسية جيدة، كتلك التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة كثيراً، وزوداه بالمعلومات اللازمة، وبالأخلاق الرفيعة، لا يبقى لهما من موجب للخوف على ابنهما، إن خرج من البيت مع صديقة له، أو على ابنتهما أن خرجت مع صديقها، شرط أن يأمنوا أيضاً إلى حسن سمعة ذلك الشخص المرافق لابنهما أو ابنتهما.

فعلاقات هذه الفترة، إن تركت على سجيتها، هي علاقات حب عذري روحي ساذج بسيط، غير خطر أبداً. إذ أن المراهق يكون غير مهيأ بعد لأن يتخطى حدود الخجل، ويتصل بصديقته اتصالاً جنسياً، يستعمل فيه الإمكانيات الجنسية التي يكون قد حصل عليها حديثاً. إذ عندما يشعر المراهق بالبلوغ، ويكتشف نمو قواه الجنسية ونضوج إمكانياتها، يغرق في جو من التفكير الجنسي مليء بالأحلام والتخيلات وغير ذلك. ويستمر هذا الخيال السابح سنة أو أكثر. ومن بعد ذلك يمتلك المراهق رد فعل قوي يرفعه من خياله إلى جو أعلى وأبعد – جو مثالي، خيالي أيضاً – وتكون هذه المثالية على شكل إيمان ديني بأحد المذاهب المعروفة، أو اعتناق أحد المبادئ السياسية والعمل له بإخلاص أو تعلق بمثل عليا.

وتصل هذه المثالية أقصاها عندما يقع المراهق في حب فتاة ما في هذه الفترة. إذ أن هذا الحب يأخذ صفة عذرية طاهرة، تنسجم مع مثالية التفكير الذي يعيش المراهق فيه.

وينصبّ هذا الحب عادة على إعجاب المراهق بالصفات الروحانية في المعشوق، وليس المادية: مثل جمال الوجه، أو شاعرية النظرات، أو حسن الشمائل والأخلاق والتصرفات، أو الإخلاص لعقيدة أو إيمان ما. ومن هنا يقوم هذا الحب الروحي.

إنه حب جميل بريء لا يشكل أي خطر على الإطلاق، لا على المحبين نفسيهما ولا على المجتمع. ولذلك لا حاجة للوالدين أن يمنعا هذا الحب أو أن يخافا منه. ولكن عليهما أن يحذرا ألا يهزأا منه ويسخرا من مظاهره. إذ أن ذلك يحطم معنويات الفتى أو الفتاة، ويقودهما إلى أن يفقدا الثقة بالحب نفسه، أو بوالديهما أو بالعالم أجمع. إما أن يعارض الوالدون هذا الحب، خوفاً من أن يؤدي إلى زواج أو علاقات دائمة فهذا أمر لا مبرّر له، إلا في الحالات الشاذة. وقد دلّت الإحصاءات التي أجراها عالم بريطاني على أن بين كل ألف حالة حب، بين المراهقين، لا ينتهي بالاتصال الجنسي منها إلا حادثتان فحسب، وهذه نسبة ضئيلة جداً، ولا تبعث أي خشية، كما أن هذه المعارضة لشيء وهمي لن يتم، لا تنتهي بفقدان ثقة الابن فحسب، بل أنها قد تضطره لأن يشعر بالنفور من والديه والعداء لهما، إذ يعتقد أنهما يسخران من عواطفه ولا يهتمان بمصلحته الاهتمام الكافي.

يبدأ هذا الحب "المراهقي" بلقاء صدفة، ويؤدي إلى صداقة فحب عميق. ولا يتخلله من مغامرات تربو على العبارات المعسولة التي يتبادلها الحبيبان مسروقة من الكتب ومشاهد السينما، وتصرفات مرحة بريئة. وتسير العلاقات هكذا إلى نهاية محتومة. إما أن يتدخل شخص ثالث ويسرق من العاشقين أحدهما، أو أن يحل أحد العاشقين هذه العلاقة فيسعى إلى قطعها. أما العاشق الثاني فيمر، بعد ذلك، في فترة حزن، شديدة الوقع عليه، لأنها الأولى من نوعها. ولا أبالغ إذا قلت أن مثل هذا الحزن العاطفي، قد لا يمر به الإنسان طيلة حياته، بعد سن المراهقة. ويظل الحزن مستبداً به مدة من الزمن، تختلف بين إنسان وآخر، حسب طبيعة الإنسان ومقدرته على تحمل "المصائب"... إلى أن يعود فيسلو، كعادة الشباب.

أي أن كل هذا الحب لا يزيد عن مرحلة سليمة وثمينة من حياة الإنسان، مليئة بالاختبارات والتخيلات التي قد لا يشعر بها في باقي مراحل الحياة. وهي من أجمل أيام العمر. وذكرياتها في الإنسان خالدة. ومَنْ منا، نحن الذين تقادم بنا العهد وكدنا ننسى أيام المراهقة، يغفل عن ذكريات حبه الأول؟!

إن الخطر الوحيد الذي يكمن في هذا الحب هو أن يتدخل الوالدان ويحولان دون إبقائه، فيزرعان في المحبين بذور الشعور بالنقص والحرمان والكبت والعداء والاضطهاد، وهو شعور قد يدوم مدة طويلة. ولنعط على هذا القول مثلاً: يذكر القارئ قصة الطفل "ب" الذي نقلتها إلى مسامعه

في فصل سابق. أن تحطم حياة ذلك الشخص ناتجة عن عدم بعد نظر والدته، وسوء تصرفها لمعالجة أموره لمّا كان في مرحلة المراهقة. فقد كانت تعارض في حبه لفتاته، بالرغم من روحانية ذلك الحب وطهارته. فنظر إليها ابنها نتيجة هذه المعارضة، نظرة قاسية، ظناً منه أنها تعامله بوحشية وأن قلبها خال من الشفقة والأمومة، وأدّى كل ذلك إلى نشوء شعور وحشي قاسٍ به، جعله يتخلى عن مثله ويُغرق في صلات الجنس.

وحالات أخرى كثيرة من العائلات المحطمة تأتي ضحية جهل الوالدين لحقيقة مشاعر الابن في سن المراهقة؛ لذلك دعوت الآباء والأمهات إلى معاملة أبنائهم المراهقين، بأساليب بالغة اللين واللباقة والعطف والرقة واللطف. والابن لا ينسى معاملة والديه الحسنة له، لما يكبر ويصبح مستقلاً عنهما؛ مثلما لا ينسى قسوتهما عليه، أن تنكرّا لعواطفه وأهملوها.

ومن الأمور الشائعة في الشرق العربي أن مسؤولية الوالدين تجاه الفتاة المراهقة هي أكثر وأعمق منها تجاه الفتى. إلا أن العلم النفساني الحديث لا يقر ذلك؛ فنحن نعرف أن وراء انصباب اهتمام الوالدين على مراقبة البنت بحرص زائد هو خوفهم من أن تزل قدمها – الخوف من أن تستأثر عواطفها وشهواتها بتقرير مصيرها فتحكم رغباتها ولا تصغي لصوت العقل والتقاليد، وتفقد عفافها لترتمي في أحضان الرذيلة – وليس فينا من ينكر على الوالدين واجبهم وحقهم في هذه المراقبة. فأخلاق الفتاة هي رأسمالها في الحياة، وإن فقدتها طبعت مستقبلها بطابع سيء تلوك أخباره الألسن. إلا أننا نخشى أن يكون الآباء الشرقيون ينصرفون إلى هذه المراقبة

الزائدة على حساب تثقيف البنت جنسياً، أي أنهم يمنعونها من الخروج من البيت ومن مقابلة الزوار وغير ذلك، ولكنهم لا يحرصون على أن يمدوها بما تحتاج إليه من معلومات عن الجنس. ولو أعطوها هذه المعلومات لكان هذا العمل، بحد ذاته، أفضل رادع لها عن الرذيلة. إذ أن الفتاة التي تعرف كل شيء عن أمور الجنس، تدرك ما للموضوع من أهمية، وتصبح قادرة على أن تتصرف بمنتهى الحكمة. أما الفتاة الجاهلة فهي التي تقع في إغراء الرجال سريعاً وتخسر عذريتها.

إن كافة الاحتياطات التي نتخذها في سبيل صون عرض بناتنا تظل ناقصة إن لم نعمل على تثقيفهن ثقافة صحيحة، في كافة أمور الحياة، ومنها أمور الجنس اللازمة.

ومرة أخرى أكرر أن الأهل، إن جهلوا هذه الحقيقة، إنما هم يجهلون الفرق الشاسع بين البراءة وبين الجهل؛ فالفتاة أو الفتى البريء هو الذي يعرف حقيقة الجنس ويدرك قيمته، ولكنه يتجاهل الموضوع، ويتجنب الإسفاف فيه، ويتصرف أمام الجنس الآخر برقة وأخلاق حسنة. أما الجاهل فهو غير بريء، لأن البراءة لا عبرة لها إلا في المعرفة. والجهل يضع صاحبه في خطر كبير يظل يلاحقه طالما هو قابع في جهله.

لقد فوجئت، في اختبارات عملي الطويل في ميدان الثقافة الجنسية، بوجود عدد كبير من الوالدين الذين يستعملون مع بناتهم أسلوب الأكاذيب والأساطير حتى بعد أن يبلغن سن المراهقة ويصبحن عرضة

للعادة الشهرية وباقي مقومات الأنوثة الجنسية. فوجئت بأن أسمع أسطورة "الطفل نزل من السماء في سلّة" تقال على مسامع فتيات بالغات قادرات، أنفسهن، على صنع مثل هذه السلال، وإنجاب الأطفال!

وقد سألت إحدى الوالدات عن السبب الذي يضطرها إلى إطلاق هذه الكذبة أمام ابنتها البالغة بين الحين والآخر، فقالت أنها تفعل ذلك كي تحيط ابنتها بقناع واقٍ من الزلل، ولتخويفها من الاتصال بالشباب ضمن أي علاقة ما، وبتصوير العلاقات الجنسية، أو حتى مجرد التحادث مع الشباب، في غاية الخطر والعيب.

ومنذ مدة حملت إلينا صحف قطر شرقي، قصة، بل مأساة، فتاة انتحرت، تاركة لخطيبها رسالة صغيرة. وقد جاء فيها أنها لا تزال تحبه كثيرا، ولكنها تخشى من الزواج بحيث تفضل الموت عليه. فلا هي تقوى على هجرانه لتتحاشى الزواج، ولا هي تقوى على قضاء الليلة الأولى في مخدع الحب معه. واهتم المحققون لهذه القصة، فأجروا تحقيقهم اللازم، ووجدوا أن الفتاة كانت في غاية البراءة والجمال. غير أن أمها كانت جاهلة وكثيرة التخوف من المستقبل. وما أن رأت ابنتها تخرج مع أحد رفاقها في المدرسة، لأول مرة، إلا وزرعت في فكرها بذور الرهبة من الاحتكاك بالشباب، وأخافتها من أي اتصال مع الجنس الثاني. وبعد مدة تخرجت الفتاة من مدرستها وتعرفت إلى شاب وتبادلا الحب ثم خطبها. ولكن الفتاة لم تستطع نسيان تحذيرات أمها، فظلت تلك الكلمات عالقة في فكرها، وكانت كلما قربت من موعد الزواج ازداد الخوف منه في نفسها. وكانت

ترى الزواج، في أحلام نومها ويقظتها، مجرد مجموعة من القسوة والوحشية والآلام. وقادها كل هذا التوتر الفكري إلى أن تتناول سماً وتتخلص من الحياة والزواج، معاً. وقد يبدو الأمر جريئا أن طالبت بأن امرأة كهذه الأم يجب أن تقدم إلى المحكمة وتحاكم بتهمة جريمة القتل.

وأحب هنا أن أصارح القارئ بأن هذا الجهل، من قبل بعض فتياتنا، لأمور الجنس، بسبب أكاذيب والداهن عليهن، ليس مقصوراً على البلاد الشرقية ففي كل بلدان العالم لا تزال الأمهات الجاهلات يحطن بناتهن بأسوار "حصينة" من الجهل والخوف والانكماش. وحتى في أميركا، التي هي بلد التحرر والمعرفة، لا تزال قضية جهل المراهقات مشكلة صعبة الحل. وقد قرأت في أحد الكتب الجنسية التي صدرت مؤخراً، لكاتب أميركي معروف قصة طريفة، تمثل لنا صحة ما أقول. قال الكاتب:

"فوجئت مرة، وأنا أسير في إحدى زوايا حديقة عامة بالمدينة، بمنظر فتاة جالسة على المقعد لوحدها. وكان منظرها ينبئ بالحزن الأليم الذي يتحكم بمشاعرها، بحيث تكاد روحها تنشق عن نفسها من شدة العذاب. ولما رأيت وجه الفتاة فوجئت أكثر من السابق، إذ عرفت أنها إحدى الفتيات اللواتي أعرفهن منذ صغرهن. وتذكرت أنني طالما لاعبت هذه الفتاة وهي طفلة، واستمعت إلى مناغاتها وتحملت أوساخها. فاتجهت نحوها، وجلست إلى جانبها، ورحت أحاول التخفيف عن آلامها.

شعرت من خلال محاولاتي أنها تريد أن تقول شيئاً، بل كان شيء. وأخيراً حصلت على الشجاعة الكافية، وقالت ذلك الشيء، بكلمات متقطعة لحمتها الآلام وسداها الحزن. وكانت عيناها تطوفان بالدموع، وقلبها يتفتت من الرهبة. قال: "سأضع طفلاً".. كان ذلك صدمة لي؛ فأنا أعرفها فتاة عذراء، في السادسة عشرة من عمرها، تلميذة مجتهدة حسنة الأخلاق واعية التصرفات. قلت:

– أمر كهذا ليس سهلاً ولا حسناً. إنما ليس هو نهاية العالم.

– كلا... بالنسبة لي هو نهاية العالم. إنه نهاية عالمي أنا. نهاية حياتي.

– لا تكوني سخيفة. وقبل كل شيء عليّ أن أعرف، هل أنت متأكدة من ذلك؟

فأومأت برأسها، ثم أطرقت به نحو الأرض، وتمتمت شفتاها "نعم. نعم".

– وكيف أنت واثقة من ذلك؟

ونظرت إلى عينيها، فحدقت بي، ورمتني بنظرة حادة كأنني إنسان جاهل لا أعرف شيئاً عن الحب والحمل! وقالت:

– أعرف بذلك لأنني أعرف ماذا عملت.

– ألا تعتقدين أنه يجدر بي أن أعرف ماذا عملتِ، وكل شيء حدث؟

– عملت الشيء الاعتيادي المعروف...

ورمت بصرها إلى الأرض خجلاً مني.

– حسناً. فقط أخبريني ما هو هذا الشيء الاعتيادي، وكيف جرى لك. تذكري أنني لا أبغي سوى مساعدتك.

ولمحت في عينيها بريقاً من أمل. فنظرت إلي وقالت بتثاقل.

– شكراً على كل حال. لقد حدث الأمر ليلة أمس...

قلت: "إذن ما دام الشيء ابن الأمس لا يمكن أن تكوني واثقة من أنك حامل".

وتزايد شعاع الأمل في عينيها، وقالت: "طبعاً أنك تعرف أكثر مني. فأنا جاهلة بهذه الأمور وافتقر إلى اختباراتها".

وأصررت على أن أعرف الحقيقة بكاملها. فروتها لي:

– كان بالأمس موعد الحفلة الراقصة في المدرسة، وكانت أمي تمانع في ذهابي، لذلك اشتد شوقي إلى الذهاب والتمتع بكل ما في الحفلة. بعد ذلك لانت، إزاء إلحاحي، وسمحت لي بحضور الحفلة. فذهبت لوحدي

وهناك تعرفت إلى شاب جميل وراقصته عدة مرات. وبعد أن تعبنا من الرقص عرض علي أن نجلس لنستريح. فخرجنا إلى الحديقة وجلسنا في زاوية منها، ولم يكن فيها أحد غيرنا. ثم رماني بنظرات أفزعتني، فوقفت وعزمت على الرجوع إلى الغرفة. فأمسك بيدي، بسرعة خاطفة، وضمني إلى صدره، وقبلني على شفتي قبلة حارة عميقة.

وتوقفت الفتاة عن الكلام، وظننت أنها تخجل من ذكر باقي القصة، فألححت عليها أن تفعل.

– وبعد ذلك، خفت منه، فهربت، ودخلت غرفة الرقص وأنا ألهث. ثم أتت صديقة لي وأوصلتني إلى البيت بسيارتها. وعبثاً حاولت أن أنام. إذ قضيت طول الليل وأنا أفكر في الأمر، بخوف شديد.

– هل تظنين يا صغيرتي أن مجرد تقبيل الشاب لك يعني أنك ستضعين طفلاً بعد مدة؟

قالت ببرود: "ولكن ألم أخبرك أنه لم يقبلني فقط، بل ضمني إلى صدره بقوة؟"

وأدركت أنها أجهل من أن تعاتب على هذا الخوف! ولكني أحببت أن أعرف لماذا اعتقدت أن الضم والتقبيل يضع في الأحشاء طفلاً. فقالت:

– أمي أخبرتني بذلك. وهل من المعقول أن تكذب علي؟

وواجهت صعوبة كبيرة في أن أمنع نفسي من إعطاء رأيي بأمها – ذلك الرأي الذي لن يرضي الفتاة بلا شك – وأخيراً قلت:

– صدّقيني يا عزيزتي أن كل هذا التخوف مجرد سخافة، إن أمر الحمل أعقد من ذلك بكثير.

ثم أعطيتها عنوان صديقة لي، طبيبة بالأمور النسائية، لتذهب إليها كي تشرح لها مسألة الحمل والولادة وباقي قضايا الجنس، وذهبت الفتاة – شاكرة ومرتاحة – ورغبت في الاجتماع بالأم. فذهبت لزيارتها، وحادثتها في الموضوع بمنتهى الصراحة. وقد أدّت تلك الصراحة إلى قطع علاقات الصداقة بيننا!"

هذه هي القصة التي قرأتها لأحد الأطباء الأميركان، ومهما كان فيها من الغرابة، فلا شك أن كل ما فيها معقول الوقوع. فأنا أعرف كثيراً من "العوانس" اللواتي لم يصبحن كذلك إلا بسبب الخوف من الزواج، وهو خوف موروث من الأمهات الجاهلات، بالرغم من تقدم الكثيرين من الشباب للزواج بهن.

والفتاة الجاهلة – البعيدة عن إدراك حقائق الحياة – فريسة سهلة لأي شاب مغامر يسعى لافتراسها والاستمتاع بمحاسنها. وبين أبناء الملاجئ غير الشرعيين عدد كبير من الذين كانت ولادتهم نتيجة اتصال أمهاتهم الجاهلات بشباب سيئي الخلق؛ فالجهل لا يمنع الاتصال الجنسي مطلقاً؛ إنه يزيد خطورته ومآسي نتائجه، ولو فرضنا أننا وضعنا مراهقين،

ذكراً وأنثى، جاهلين لكافة أمور الجنس، في جزيرة منعزلة نائية، هل يبقيا مدة طويلة دون أن يجري بينهما أي اتصال جنسي!

إن من يذكر من القراء قصة الفيلم الأميركي الذي عرضته إحدى دور العرض في بيروت منذ مدة، باسم السفينة الزرقاء " The Blue Lagoon **" يرى مثالاً حسياً على ما أقول. إذ مما لا شك في أن أي اثنين، مهما كانا جاهلين للجنس، كما جرى في تلك القصة، لا بد وأن يتعاطيا شيئا من الحب، إن كان بينهما شيء من الإعجاب المتبادل، وكانت الفرصة مناسبة. وذلك الحب قد يبدأ بقبلة أو ضمة، أو مجرد ابتسامة، ثم يمر بمرحلة المداعبات البريئة وغير البريئة، وينتهي باتصال تام يهزأ بالجهل.**

كثيرا ما تأخذ الغريزة مكان المعرفة، فتبزها سلطاناً، وسيطرة على تصرفات المراهقين. والعقل لا يجابه عدواً أكثر ضراوة من الغريزة الجامحة، وانتصار الغريزة ينتهي عادة بأطفال في حضن أمٍ مراهقة لم تتزوج بعد. وبعد هل كان اتصال آدم بحواء إلا نتيجة الغريزة، بالرغم من جهل الاثنين لحقائق الجنس!

ويكمن الخوف الأعظم عندما تكون الفتاة، فقط، جاهلة لهذه الأمور، أما الفتى المراهق فيكون مدركاً لها؛ فجهل فتاة كهذه لا يمنعها، إزاء مداعبات رفيقها وملاطفاتها لنفسها ولجسمها من تسليم جسدها، بكامله وبعذريته، له، ليتمتع به، ولتتمتع هي بمتعة ولذة يقودانها إلى شيء لا تدرك كنهه ولا تتنبأ عن نتائجه. ويكون الفتى عادة غير مدرك أن فتاته

جاهلة ما تفعل وما يفعل هو، لذلك يتمادى بعمله ظناً منه أنه يرضيها ويبسطها. فهو يجهل أنها إنما تلعب بنار تحرق دون أن تدري!

ويزيد في أخطار هذه المرحلة – مرحلة المراهقة – إهمال الوالدين لأمر العناية بأبنائهم. فالوالدان اللذان قلما يجلسان مع أبنائهم في البيت، ولا يأخذانهم معهما في أوقات الراحة والنزهة إلى شارع المدينة، ولا يعنيان بأمورهم الخاصة، إنما يعرضان هؤلاء الأبناء إلى البحث عن متعة أخرى، غير متعة حياة البيت العائلية الهادئة وتكون هذه المتعة – طبعاً – في أحضان الجنس الآخر.

ومجرد جلوس الأب أو الأم مع ابنها، من حين إلى آخر جلسة لا كلفة فيها ولا فوارق بين الابن ووالده، والتحدث معاً أحاديث ناضجة، يعطي الوالدين فرصة سانحة لإسداء النصائح وإيضاح الحقائق التي قد تكون لا تزال مبهمة عند المراهق. ولا حق للوالدين إن لاما ابنهما على فعل أو تصرف إن كانا يدركان أنهما مقصران في توجيهه ومهملين لشؤونه.

وهذه الجلسات مع أبنائنا –كنوزنا للمستقبل – هي الواقية من أخطار سن المراهقة، التي سنبحثها في الفصل التالي.

الفصل السادس

أخطار المراهقة

١ـ العادة السرية والاحتلام

لا أدري إذا كان يحق لي أن استعمل كلمة "أخطار"، مع أنني لا أقصد أن أبالغ في هذه الأمور، ولا أعتقد أننا نستطيع أن نعتبرها، كلها، أخطاراً مزعجة. إلا أنه يجدر بنا أن ندرك أن معظم صفات سن المراهقة تكوّن أخطاراً في بعض الحالات التامة؛ وخاصة عند الصبيان. لذلك علينا ألا نتشاءم بخصوصها وألا نتهاون في أمرها أيضاً. وأشهر هذه الأخطار وأكثرها انتشاراً هي العادة السرية، التي لم تعد سرية للناس، بالنسبة إلى إذاعة شهرتها، ولا للأهل، بالنسبة لمعرفتهم بها عند أبنائهم.

والعادة السرية هي مجرد لذة ذاتية، تأتي عند تهيّج الجسد – من زاوية جنسية – فيمارس الشخص المتهيّج اتصالاً جنسياً دون أن يكون في العملية شخص آخر يطبّق عليه هذا الاتصال. ويظل في الممارسة، لوحده، إلى أن يبلغ النهاية المنشودة، وهي لذة الانتهاء. أما طرق هذه الممارسة

فهي اليد في أغلب الأحيان. إلا أن الذين تبلغ العادة بهم حد المرض فهم يستعملون أموراً أكثر خطراً.

ومما يؤسف له أننا نرى الناس، من أجل تحذير الصغار المراهقين من استعمال هذه العادة ومنع ممارستها عنهم، نراهم يبالغون في وصف مخاطرها وسيئاتها بحيث ضاعت الحقيقة عن الأعين كما أدّى التشديد على تبيان أخطار هذه العادة، وهي السل والشلل والجنون؛ إلى إغفال أخطار أخرى قد لا تكون أبسط منها مثل الضعف الجنسي الذي يؤدي أحياناً إلى انحلال تام في قوى الجنس عند الإنسان؛ وتوتر الأعصاب وما يلحقه من نرفزة وضيق صدر وعقم؛ وبعض عوارض فقدان الذاكرة. إلا أننا نؤكد هنا أن كل هذه الأمراض، الخطيرة، لا تنتج إلا من التمادي في العادة السرية تمادياً يصل إلى حد الإغراق فيها.

وقبل التوسع في الموضوع أحب أن أحذِّر الآباء والأمهات، والمراهقين أنفسهم، لأوفر عليهم أتعاباً كثيرة من انشغال البال: لا تحملوا هماً كبيراً، أيها الوالدون، إن رأيتم أبناءكم يمارسون العادة السرية. ويا أيها المراهقون إن لم تتغلبوا على السعي لعدم ممارستها، فإن العادة السرية أمر مألوف وعادي عند المراهقين، على مختلف الأعمار والأجناس والشعوب والأزمان، وأخطارها الكبيرة كما ذكرت من قبل، قليلة، وهي ليست إلا نتيجة التمادي فيها. فالمسألة لا تحتاج إلى يأس ولا رهبة.

وإياكم أن تتهموا المراهق الذي يمارس العادة بالأخلاق السيئة أو التصرفات الشاذة، أو الطبع الرديء. فلو كان ممارس العادة رديئاً، لمجرد ممارستها، لما بقي بين المراهقين من هو ليس بريء. فكل مراهق يمارس العادة السرية، من وقت إلى آخر. والفارق بين مراهق وآخر، بخصوص العادة، هو الفرق في كيفية ممارستها وكمية ذلك. فمتى أدمن عليها لم تعد حالة طبيعية، وأصبحت قضيته مشكلة تحتاج إلى العلاج السريع، ولذلك فأنا هنا لا أدافع عن العادة السرية ولكني أعترف بأنها ليست خطراً مخيفاً.

إن بين العادات التي تشابه العادة السرية وتكتنف حياة المراهقين ما هو أشد خطراً منها. وفي مقدمة هذه العادة عادة الاحتلام. والاحتلام هو، من ناحية علمية "أحلام رطبة" يرى النائم فيها رؤى جنسية فيمارس الاتصال دون أن يدري.

ولكل ذكر طرق ثلاث يستعملها للخلاص من المادة المنوية التي في جسمه – أي من مواد الخصب والإنجاب التي تحملها أعضاؤه التناسلية – أول هذه الطرق، وأكثرها واقعية وأقلها خطراً، هي الاتصال الجنسي الطبيعي مع المرأة، وثانيتها العادة السرية، أما الطريقة الثالثة فهي الاحتلام.

في الطريقة الأولى يوجد ما يعوّض عن الجهد الذي يبذله الذكر في تعاطي الصلة الجنسية مع المرأة، وهذا التعويض يأتي من تبادل الحيوية معها، من نشوة الاتصال، والعطاء والأخذ.

وفي العادة السرية بعض اللذة والتعويض، لأن الفتى يعملها مختاراً، ويتعاطاها على أمل نشوة ما، ولو كانت بيده هو. وهذه النشوة تعوّض، نوعاً ما، عن الجهد الذي بذله.

أما الاحتلام، الذي لا يحدث إلا أثناء النوم، فهو أمر غير اختياري وهو يتم دون أي تبادل، أي دون أي شعور بلذة تعوّض عن جهد ذهب هباء. ويزيد في مضاره أنه فجائي، لا موعد محدَّد له؛ وأنه أكثر مداومة من الطريقتين سالفتي الذكر، والتعب الذي ينتج عنه أبعد أثراً، وأدوم نفوذاً في جسم الإنسان مدة طويلة، والإكثار من حوادثه يعرّض الجسم لأخطار متعددة تفوق أخطار العادة السرية.

مقابل هذه الأخطار في الاحتلام يؤكد علم الأبدان أن العادة السرية لا تشكل أي ضرر ما دامت تمارس بصورة معتدلة، ويستدلون على ذلك أنها أيضاً عادة مألوفة عند أغلبية الحيوانات، دون أن تؤثر على قواها الصحية مطلقاً.

والكثير من كبار علماء الجنس، أمثال: بروكان، وتوجيل، وكرسشيان، وغرسينغر، يجمعون على أن بعض الأمراض الخطيرة التي ذكرتها قبل قليل لا علاقة لها بالعادة السرية مطلقاً. وأن وجودها في المراهقين الممارسين للعادة السرية ناتجة عن أسباب أخرى، وعن ضعف حصانة المريض ضدها.

ومع هذا، لسنا نزعم أن الوالدين يحسن بهم أن يشجعوا أبناءهم على ممارسة العادة، ما دامت أخطارها أقل مما يشاع، إذن كيف نعمل للحول دون تمادي المراهقين بممارسة العادة، وكيف نعالج المراهق الذي يتمادى في ممارستها؟

يجب أن لا ننسى – أولاً وقبل كل شيء – أن كل مراهق يمارس العادة، قليلاً أو كثيراً، بين حين وآخر؛ لذلك فإن طريقة العلاج هي أن يواجه كل مسؤول: (الأب، أو الأم، أو الوصي، أو الأستاذ) المراهق الصغير ويخبره بحقيقة العادة، يخبره بنتائجها وأمراضها وأخطارها التي قد تنتج عن التمادي فيها، ليكون المراهق على بينة مما يفعل، وتتم هذه العملية التثقيفية الجنسية قبيل دخول الفتى في سن المراهقة، أي وهو على أعتاب البلوغ.

هذا هو ما يستطيع المسئولون فعله، وليس بمقدورهم فعل شيء أكثر من ذلك.

ومن أسوأ معالم العادة السرية أنها تحاط بسرية تامة؛ فنحن نعلم أن كل المراهقين يمارسونها، ولكن ليس بين كل ألف مراهق أكثر من واحد فقط يعترف بذلك! فالعادة مقرونة بالخجل. وعن الخجل تنتج هذه السرية التي تحيط المسألة بالكتمان، وخاصة عن الأهل. وكل مراهق يعتقد أن التصريح بعادته يعني الاعتراف بخطأ، أو جريمة، أو عيب يجب ألا يبوح به!

أخال بعض القراء يسألون "وكيف يعرف الأب ما إذا كان ابنه يمارس العادة، ومتى، وبأي كمية؟"

جواباً على مثل هذا التساؤل أقول أنه ليس من طريقة سهلة لاكتشاف ذلك، وبين أبناء الشرق فكرة عامة بأن الفتى المراهق الذي يمارس العادة السرية يعرف بين الناس بسهولة بواسطة آثار هذه العادة على شكله العام، ويحددون هذه المظاهر بأنها وجه شاحب تعب، عيون ذابلة، وبقع أو حبوب على جلد الجسم. إلا أن اختباراتي، ومعلوماتي بالاستناد إلى عشرات المؤلفات التي طالعتها تنفي هذا الاعتقاد نفياً جازماً. إذ أن هذه الظواهر ليست نتيجة العادة السرية. بل هي آثار بعض تطورات دموية في الجسم، ونتائج بعض التغيرات في أوضاع الكبد وغيره من أجزاء الجسم الداخلية وحتى المتمادين في ممارسة العادة السرية، ليس عليهم أي مظهر يدل على ذلك.

على كل حال لا أشك في أن الوالد الذي يهتم بأمور ابنه المراهق ويتتبع تصرفاته قد يستطيع – إلى حد ما – معرفة الدرجة التي يمارس بها ابنه العادة السرية، وما إذا كانت من ضمن الحد المعقول، أو أنها وصلت إلى المغالاة الخطرة.

أن بعض تصرفات الفتى المراهق تفضحه دون أن يدري ذلك، منها ذهابه إلى النوم باكراً، قبل الوقت المعتاد، دون أن يخبر والديه بالسبب، والنهوض في الصباح بتعب ظاهر وتثاقل بطيء وصرف أوقات النهار في

صمت وهدوء وكسل، وإيثار الاستلقاء على السرير والاستراحة التامة بدل الخروج من البيت وصرف الوقت في اللعب مع الرفاق والنزهة والرياضة والسباحة وغير ذلك.

كما أن باستطاعة الوالدين أن يتحققا من ممارسة ابنهما للعادة السرية بواسطة ثياب الابن الداخلية، أو غطاء السرير، لملاحظة آثار هذه العادة ونتائجها؛ فقلما تنتهي ممارسة هذه العادة دون ترك بعض آثارها على قطع القماش المحيطة بالجسم، وبعضو التناسل خاصة.

أما أفضل الطرق للحد من العادة ومنع المراهق من التمادي في ممارستها فهي فتح المجال أمام الفتى لأن يشغل نفسه معظم وقته شغلاً مستمراً ومتعباً وملذاً. وأحسن أنواع هذا الشغل "الإجباري" هو اللعب أو الرحلات أو الرياضة، نهاراً أو ليلاً. فإذا وضعنا أمام أعين المراهق شيئاً آخر يلذ له عمله، ليفكر به، نستطيع أن نصرف تفكيره عن نفسه، وعن لذة العادة، قدر الإمكان.

والاستحمام، خاصة في الشواطئ أو الحمامات التي يشترك بها الذكور مع الإناث، طريقة ممتازة لمعالجة هذه العادة. فبذلك الاختلاط يصبح منظر جسم الفتاة القريب من العري أمرا مألوفا عند الفتى المراهق. وكلما اعتاد المراهق على رؤية الأجزاء المكشوفة من جسم المرأة كلما شعر أنها ليست مصدراً للفتنة، وأنه يجب ألا يشعر بنفسه أنه محروم من التمتع بجمال النظر إليها. وبذلك تتبدَّد زاوية الجوع الجنسي التي ينظر منها إلى

المرأة، ويأخذ زاوية جديدة، هي زاوية الجمال والصحة والطبيعة والواقع، وتتبدّد، أيضا، تخيّلات نفسه التي تراوده أثناء الوحدة، والتي تدور كلها حول جسد المرأة والشهوة التي تنبعث منها. وهذه التخيلات هي السبب المباشر لمعظم حالات العادة السرية.

ومراقبة طعام المراهق من الأمور المهمة ذات العلاقة بموضوعنا؛ فالأكل يجب أن يكون في منتهى البساطة – فواكه وخضار طازجة – ويحسن بالأم أن تتجنب إكثار البهارات والمآكل الدسمة في البيت حتى يقبل الابن المراهق على المواد البسيطة الطازجة.

ومن واجبات الوالدين أن يحرصا على ألاّ يكثر ابنهما المراهق من الاهتمام بأمور ونواحي التسلية غير الطبيعية؛ فيجب على المراهق أن يبتعد عن مشاهدة أفلام السينما الخليعة التي تقدم الفتيات بشكل مغرٍ يهيّج أجزاء الجسم، ويجعل شهوة الغلام تسعى لأن تنال نوعاً من اللذة، ولو كانت لذة وهمية، ويجب عليه أيضاً أن يبتعد عن كتب القصص الخليعة، الرخيصة الفن والأسلوب، التي يهتم مؤلفوها بأن يغروا المراهقين البسطاء على الجري وراء اللذة، ونيلها بأسرع وقت.

إن ابتعاد هذه المغريات عن المراهقين، والتعويض عليهم، بدلها بأتعاب جسمية ملذة، وإشغال فكره بأمور أسمى وأثمن، كل ذلك يجعل الواحد منهم لا يدخل إلى سريره إلا وهو ساعٍ لأن ينال نوماً هنيئا ولا يفطن للعادة السرية مطلقا.

أما إن عجزت كل هذه الطرق عن ردع الصغير، وظل متماديا في ممارسة العادة بشكل مزعج، فما على الآباء إلا إرسال ابنهم إلى طبيب العائلة المختص ليعالجه علاجاً طبياً يقيه من أضرار مشكلته.

ونأتي الآن إلى الإناث– إلى الفتيات المراهقات.

والرأي الشائع عند الناس هو أن العادة السرية التي تكلمنا عنها محصورة عند الصبيان فقط وأن البنات لا يتعاطينها أبداً، وإن فعلن ذلك فبصورة محدودة وضئيلة جداً. وهذا الرأي خاطئ بقدر ما هو شائع؛ فالفتيات عرضة للعادة السرية أكثر من الصبيان! ومن الخطأ أن ينام الوالدون على الثقة بأن بناتهم المراهقات محصنات ضد العادة السرية بعكس الصبيان.

وبالرغم من أن العادة السرية منتشرة أكثر عند الفتيات، إلا أن أخطارها في الذكور تكون أعمّ وأكثر. ولكن هذا لا يمنع الوالدين من الاهتمام بالمسألة، ومجابهتها بالصراحة التي دعونا إلى مجابهتها في حالة الذكور.

ولنرجع الآن إلى موضوع الاحتلام عند الصبيان.

ومما يسهل أمر معالجة هذا الموضوع أكثر من العادة السرية هو سهولة التحقق من وقوع الاحتلام بواسطة الآثار التي يتركها فمن المستحيل أن يحتلم المراهق دون أن يترك آثار احتلامه على غطاء السرير أو على بيجامته (منامته)

وإن وجد الأهل آثار هذا الاحتلام بين آن وآخر، دون كثرة ودون مداومة خطرة، كان من السهل عليهم معالجة الموضوع بأنفسهم، ويزيد في تبسيط الأمر عليهم، من أجل مصارحة الابن بهذا الاحتلام، إن الاحتلام يتم

دون أن يكون الغلام مسئولا عنه فهو عمل لا إرادي، والغلام بريء من تبعته تماماً. لذلك لا يبقى له من موجب لأن يخجل، مثلما لو كانت العادة السرية التي لا تتم إلا بعد رغبة، وسعي، وجهد الشخص نفسه. ولا ننسى أيضاً أن من الفروق بين الاحتلام والعادة، أن في العادة يكون الغلام ضد رغبة أبيه في وجوب الامتناع عن تعاطيها. أما هنا فالمراهق ينزعج من الاحتلام ويكرهه أكثر من أبيه. لأن المراهق لا يغنم أي لذة من وراء احتلامه.

ولعلاج عادة الاحتلام أُرجع القارئ إلى كافة العلاجات التي اقترحتها لردع المراهق عن العادة السرية. وأضيف إليها أيضاً هذه الحقيقة: وهي أن الاحتلام يحدث عادة بينما يستلقي الغلام على ظهره. لذلك فأنا أنصح المراهقين بأن يتحاشوا النوم على الظهر. أما إذا كانت هذه العادة مألوفة لديهم بحيث لا يستطيعوا تبديلها فأنا اقترح عليهم أن يضعوا على ظهرهم شيئاً مزعجاً، كلفّ منشفة حوله، أو وضع عقدة منديل، بحيث أن استلقى الغلام على ظهره مال سريعاً إلى أحد جنبيه وبقي كذلك. والنوم على أحد الجانبين ذريعة ممتازة ضد الاحتلام.

ومن وسائل مكافحة الاحتلام أيضاً عدم تناول طعام العشاء متأخراً، والاختصار من مواده قدر الإمكان، فالمعدة الخالية ضمانة جيدة لإبعاد شبح الاحتلام.

الفصل السابع

٢ـ حالات شاذّة

أ ـ الخوف من العادة الشهرية.

خوف بعض المراهقات من العادة الشهرية، المعروفة "بالميعاد" يبلغ أحياناً حداً بعيداً بحيث سمحت لنفسي أن اعتبرها إحدى مشاكل المراهقة، وأدرجتها بين الأخطار التي يجدر بنا أن نعالجها. وتنشأ هذه المشكلة عادة عندما تكون الأم – لجهلها – قد أهملت أمر إخبار ابنتها بحقيقة هذه العادة. والخجل في الحديث بهذه المواضيع يمنع بعض الأمهات من ذلك، وخجل كهذا لا حاجة بنا لأن نذكّر القارئ بسخفه وعدم وجوب القبول به. فمن واجب الأم وحدها إخبار تفاصيل العادة الشهرية لابنتها، وهي في أوائل عهد المراهقة، قبل أن تأتيها العادة لأول مرة. وإن كانت الأم لا تملك الصراحة الكافية فالأجدر بها أن تتأكد من أن ابنتها تعرف الموضوع من أي مصدر علمي آخر صحيح المعلومات مثل الأطباء أو الكتب النسائية العلمية المشهورة بدقتها.

يؤكد أطباء المدارس الثانوية للإناث أنهم يتصلون – أثناء عملهم – بعدد كبير من الطالبات اللواتي يكنّ في سن البلوغ (ويجدر بالقارئ أن يدرك أن العادة الشهرية ليست، كما يعتقد أغلب الناس، علامة على بدء

مرحلة البلوغ عند الفتاة، بل هي علامة على أن الفتاة قد اكتمل بلوغها تماماً وأصبحت قادرة على كافة المقدرات الجنسية). وكان الأطباء يفاجأون بأن هؤلاء الفتيات يتركن دون أن يجدن من يفهمهن حقيقة التطورات التي حصلت وتحصل لأجسادهن.

ومن الجريمة أن نترك الفتاة حتى تباغت بالدم ينفجر من جسمها دون أن تكون قد زودت بمعلومات كافية عن الموضوع. فحادث كهذا يبعث فيها خوفاً شديداً، وينزل الدمع من عينيها، ويجعلها في توتر ورهبة، وقد يمتد هذا الخوف إلى طول سني المراهقة، فتظل الفتاة عرضة له، وبالتالي عرضة للانكماش على نفسها، وترك المجتمع، والخوف من الناس.

ب- مشكلة التلذّذ في التعرّي.

إن من بين مظاهر الغريزة الجنسية في الأطفال إعجاب الطفل برؤية نفسه عارياً، والتمتع بمرأىً كهذا. ويظل هذا الشعور مستبدّاً بالطفل إلى أن يبدأ يعي شعور الخجل؛ فالحياء يقضي على هذه اللذة، ويمنع بقائها. غير أن بعض الناس لا يتمكنون من نزع هذه الرغبة من أنفسهم، فتظل متمكنة منهم إلى ما بعد البلوغ، فتصبح – في سن المراهقة – مشكلة كبيرة، وخطراً يكتنف تصرفات المراهق دائماً.

يكون همّ "المريض" بهذه الرغبة أن يعرض نفسه، قدر طاقته أمام الجنس الآخر، كاشفاً عما يستطيع كشفه من أجزاء جسمه؛ فهو يلتذ بأن

يرى الناس، وخاصة الجنس الآخر، يتمتعون بمنظر جسمه المكشوف وجمال العاري. ويبعث هذا المنظر في نفسه شعور الارتياح والزهو. وقد يصل هذا الخطر بالشخص المراهق إلى أن يأنف الاتصال الجنسي العادي، ويرفض العلاقات النسائية، لعدم شعوره بأية رغبة في ذلك. فتتحجّر رغبته الجنسية في مرأى أعضاء جسمه، عارية، ومعروضة أمام الناس.

طبعاً.. إن هذه الحالات شاذة وقليلة الوقوع بين المراهقين، بحيث قلّ أن نقع على مشاهدتها في حياتنا اليومية، ولكن هذا "المرض" على درجات متنوعة، وإن كانت الحالات القصوى منه شاذة، فالحالات الاعتيادية، أو الدرجات الأولى منه، كثيرة الوقوع، وتحت أبصارنا أينما تجولنا، بين المراهقين والمراهقات.

ومن مظاهر هذه الحالات الأولى – بين المراهقين – العناية بفتح أزرار القمصان للكشف عن الصدر الممتلئ بالشعر؛ وعرض الجسم في مايوه البحر على الشواطئ، بمختلف المواقف.

أما مظاهر هذه الرغبة في المراهقات فهي رفع الفساتين أثناء الجلوس – تعمداً – ليظهر من السيقان أعلاها، ولبس الأثواب المكشوفة الصدور، بحيث يظهر الصدر الممتلئ من فتحة الثوب في أعلاه؛ والاهتمام بعدم تغطية الأيدي والظهور والنحور قدر الإمكان.

إني أعترف أن الطبيعة نفسها زوّدت الجنسين بالإغراء، وأن الإنسان من حقه أن لا يحجب مفاتنه عن باقي الناس؛ فجمال هذه المفاتن هو

أساس الإعجاب، الذي هو أساس الحب فالزواج فالوجود الإنساني، ولكن إن تحولت حياة الإنسان إلى مجرد سعي لأن يكشف عن هذه المفاتن ويغري بها الجنس الآخر، وأصبح همه الوحيد هو عرض نفسه من شرفة التعرّي أمام الناس، تحول التأنق إلى تبذّل، والجمال إلى وسيلة للتملك، وأصبح الإنسان مريضاً، يعاني ألم الاستخفاف بقيمة نفسه، دون أن يدري.

ج- "الساديّة"- التلذّذ بتعذيب الغير.

تنسب كلمة "سادية" إلى النبيل الفرنسي، المركيز دي ساد، الذي عاش منذ مدة طويلة. وكان هذا الرجل صاحب تصرفات جنسية شاذة. فقد كان يلتذ إذ يرى إلى النساء اللواتي يحبهن أو يجري معهن اتصالات جنسية، وهن يتعذبن ويتألمن، فالألم – بالنسبة إليه – كالإغراء بالنسبة للرجل العادي، أي مبعث شهوة الجنس وطلب الاتصال مع المرأة.

وهذا المرض ينشأ في الإنسان، على شكل مبسّط، فهو في الأطفال رغبة جامحة إلى تعذيب الأطفال الآخرين، وشدّ شعر البنات الصغيرات، وتكسير اللعب، وضرب الحيوانات، وغير ذلك. وينمو الطفل، والمرض ينمو معه. ولما يصل إلى مرحلة المراهقة، وتكون قواه الجسدية والجنسية قد تفتحت لأول مرة في الحياة، تتخذ رغبة هذه الصفة العدائية، فتسعى لأن تعذب النساء حتى تلتذ اللذة الكبرى، ويصل التعذيب أحياناً إلى حد الوحشية.

والمرض مرض رجالي، عادة. ذلك أن طبيعة المرأة قلما تقبل بهذه الرغبة لتعذيب الآخرين. إذ أن في الأنوثة من الرقة واللطف ما يحول بينها وبين نمو الرغبة "السادية".

د- "الماسوشسمية"- التلذذ بالتعذيب الذاتي.

أما هذا الاسم "ماسوشسم" فينسب إلى القصاص النمساوي، ماسوش، لأنه أول من وضع أسس هذه اللذة الشاذة الغريبة، وهي تعني تعذيب النفس والجسد من أجل الحصول على لذة جنسية. والفرق بينها وبين السادية، أن السادية تقوم على تعذيب الإنسان المريض بها لامرأة ما. أما الماسوشسمي فهو يلتذ بأن تعذبه النساء تعذيباً قاسياً لكي يلتذ بذلك.

وهذا المرض مظهر من مظاهر الحب المتناقض – أي الجمع بين الحب والكره في آن واحد. والإنسان المبتلى به يجمع عادة بين عدد من المتناقضات في تصرفاته وآرائه.

والتعذيب الذاتي منتشر انتشارا واسعاً، كالسادية. إلا أنه مكتوم غير ظاهر، لذلك لا نحس بوجوده كثيراً. وهو ينتشر بين المراهقات، والنساء عموماً، أكثر من انتشاره بين الرجال والمراهقين. ذلك أن هذه الرغبة تنتج عن الشعور بالضعف والاستسلام للآخرين. وبين المرأة والرجل، والمرأة هي الأضعف، وهي المستسلمة عادة. لذلك تنمو في نفسية بعض المراهقات أنهن إماء للرجل، لذلك يقبلن على هذه العادة ويصبحن إماء لها.

غير أن هذا لا يمنع من وجود بعض الذكور من المصابين بمرض حب التعذيب الذاتي. ومثل هؤلاء الرجال يبحثون عن النساء اللواتي يرضين بأن يعذبنهم تعذيباً قاسياً. ومنهم من يستأجر النساء العموميات لقضاء هذه الرغبة.

هـ- حب الجنس الواحد

هذا المرض واسع الانتشار في جميع بلدان العالم، وهو معروف علمياً باسم (Homo sexuality) أي حب الذكر للذكر والأنثى للأنثى.

وكباقي أخطار المراهقة يبدأ هذا الاتجاه الجنسي الشاذ منذ الطفولة، فهو – في تلك المرحلة البريئة – يتجلى في رغبة الطفل الذكر في اللعب مع الذكور، والأنثى في اللعب مع الإناث، ويرفض الجنس الواحد منهما اللعب مع الجنس الآخر، وإن فعل ذلك لم يشعر بأية لذة. حتى أن الطفل الذكر يتعلق بأبيه والأنثى بأمها، مع أن العادة المألوفة هي العكس.

ويزيد في تشجيع هذه الظاهرة الخطرة عند الصغار إرسالهم إلى مدارس غير مختلطة. فينمو الصغير وهو مندمج في جو من جنسه، لا أثر للجنس الآخر فيه، ولهذا كانت المدارس الابتدائية الداخلية حيث التعليم غير مختلط، أكبر معاقل الشذوذ الجنسي في البلاد.

وهذا الشذوذ منتشر بين البنات انتشاره بين الصبيان، وينتشر بين المراهقين انتشاره بين الذين تعدّوا مرحلة المراهقة. ولكنه – كباقي الأمراض

– يتكيّف في سن المراهقة بقالب خاص به لقلّة اختبار المراهق، وحداثة عهده بالتمتع بكافة القوى الجنسية التي تؤهله لإجراء الاتصال الذي يريده، من أي نوع كان.

ويكون هذا الشذوذ خاصة عند المراهقات – في كثير من الأحيان – نوعاً من الحالة السيكولوجية المسالمة أكثر مما هو مرض جنسي خطير. إذ أن البنات، في سن المراهقة، يسعين كثيراً لأن يكوّن لهن صداقات مع بنات من جنسهن. وفي المدارس تسعى الطالبات لتأليف "الأحزاب"، فتنضوي كل ثلاث أو أربع تحت لواء فتاة منهن، تتزعمهن وتنال رضاهن، وتتحكم فيهن. ومنهن من يقعن في "غرام" المعلمة، أو المديرة. وفي بعض المدارس النسائية الثانوية يكون لكل معلمة حزب من الطالبات المعجبات بها! وهذه الحالات يعتبرها البعض نوعاً من الشذوذ الجنسي. ولكنها في الواقع ليست أكثر من إعجاب بريء، وأحيانا سخيف، يربط بين المراهقات ربطاً محكماً. سرعان ما يتبدد وتزول هذه الروابط، عند قطع هذه المرحلة.

و- الترجل في المراهقات والتخنث في المراهقين.

ليس من إنسان وسط، لا هو بالرجل ولا هو بالمرأة، من حيث التركيب الجسماني والشعور، إلا في الحالات الشاذة النادرة. ولكن ليس من إنسان يجمع بين صفات الرجل والمرأة معاً، مطلقاً (مع أن بعض حيوانات الطبقات السفلى تجمع بين هاتين الصفتين، فيستطيع الواحد منها أن يحبل ويلد بنفسه، دون معونة حيوان آخر!)

غير أن بعض النساء، وخاصة في سن المراهقة، يسعين لأن يتصرّفن كالرجال، لشذوذ في طباعهن، أو لشذوذ في تركيب أجسامهن؛ فهؤلاء يظهرن بمظهر الرجل، بكل معنى الكلمة، حتى أنهن إن أردن الرجوع إلى الأنوثة – بعد المراهقة – يفشلن!

ونرى – مقابل ذلك – بعض الذكور المراهقين، المخنثين، الذين تؤدي رقة أعضائهم الجسمية وميعان شعورهم بالرجولة إلى أن يعيشوا كالنساء، إما بلبس أثواب نسائية، أو بوضع الزينة المقتصرة على النساء، أو بأي شكل آخر من أشكال التصرّف.

وهذا الخطر، في حالتي الرجل والمرأة، خطر شاذ ونادر.

الفصل الثامن

٣ـ الانحراف في الحب

أـ النارسيسية أو عشق الذات.

قلنا في فصل سابق أن الحب – في سن المراهقة – يكون حباً بريئاً، مثالياً. وهذه هي الحالة المألوفة في المراهقة، ولكن كما أن لكل قاعدة شواذاً، فللحب في سن المراهقة، حالات شاذة يتحوّل بها عن الطريق الصحيح ويصبح خطراً يستدعي المعالجة. ويجدر بنا، قبل البدء في الكلام عن هذا الانحراف، أن نذكر أن تأخر الشباب في الزواج، وهي ظاهرة من مظاهر العصر الحديث، قد أدّى إلى إهمال أمر حب مرحلة المراهقة واعتباره أمراً بسيطاً. ولو بقي رجالنا يتزوجون وهم في أوائل عهدهم بالشباب، كما كانوا قديما، لظل لحب المراهقة قيمة سامية في ذكرياتهم.

إن إمكانية الحب هي أهم عنصر في حياة الإنسان – الجسمية والعقلية – وتأثيرها فيه أوسع من أن يجد في أسطر أو صفحات وهو ذو تأثير قد يكون سلبياً وقد يكون إيجابياً، إلا أنه تأثير دائم مدى العمر. وقد

قال مادوسلي "ماذا يبقى للإنسان، أو للبشرية وحضارتها، لو نزعنا من التاريخ شعور الحب عند البشر، وما ينتج عن ذلك الشعور الخالد مع الأجيال". فالحب هو الشيء الذي يجمع البشرية – على مختلف عصورها وأزمانها وبيئاتها وأممها – في دفقة واحدة من العطف والشعور.

ولقد اختلف الفلاسفة والمفكرون، منذ أقدم الأزمنة، في حقيقة هذا الحب وجوهر كيانه، وخاصة في موضوع مدى روحانيته أو جنسيته؛ فالمثاليون منهم آمنوا بأنه مجرد عاطفة روحية، تجمع بين قلبين ائتلفا ائتلافاً روحياً وثيقاً. أما الماديون فيؤكدون أن الحب هو "الأثر الأول للجوع الجنسي في الإنسان، بحيث ليس لنا أن نفهمه إلا أن وعينا العامل الجنسي فيه". كما قال فيلدنج.

مع أن قانون حفظ النوع هو أقدم قوانين الحياة وأرسخها في تاريخ الحضارة البشرية، إلا أن العفة الاجتماعية في الإنسان – التي تحد من فرديته المطلقة وتحول بينه وبين الأنانية الجاحدة – تبعث فيه شعور الألفة والمحبة والتضحية والحاجة للغير. وهذه كلها تؤسس الحب، الذي يصبغ علاقة الإنسان مع العالم بصبغة اجتماعية رائعة، ولذا قال الشاعر الانجليزي الكبير "شللي" بيته الخالد: "ليس في الحياة ما هو فرد".

إن دافع الحب هذا، وهو دافع قوي وعالمي وطبيعي، مسؤول عن معظم تصرفاتنا، سواء أكان حباً عاديا أم حباً شاذاً منحرفاً. والإنسان يعرف الحب منذ طفولته حتى كهولته، في الطفولة يكون الحب ذاتياً، وهو

ما تعارف الناس على تسميته بالحب النارسيسي (نسبة إلى نارسيس، الإله الإغريقي الأسطوري الذي كان يعشق ذاته)؛ فالطفل يعشق نفسه، أنه يحب أن يرى جسده في عريه. يحب أن يمص أصبعه. يحب أن يحكّ صدره. وكل هذه الأمور تشير إلى تعلق الطفل بجسمه هو.

ومع نمو الطفل تتحول عنه هذه النارسيسية ليأخذ محلها حب الغير، وهو الحب المعروف. إلا أن بعض الناس لا يتمكنون من إجراء هذا التطور في فكرة الحب عندهم، فيظل حبهّم حباً نارسيسياً، إلى ما بعد البلوغ؛ فالنارسيسية، أو عشق الذات، في المراهقين خطر لا يستهان به، مثل باقي نواحي الشذوذ التي تكلمنا عنها في مكان آخر. والمراهق الذي يكون مبتلياً بهذا النوع من العشق يملك صفات مذمومة، مثل وحشية الطباع، والانكماش عن الناس، وشدة أنانيته. وتتصف حياته بالبؤس والشقاء والتعاسة، ونارسيس نفسه بطل أسطورته، عاش حياته تعيسا!

ب- الارتباط الأعمى بالوالدين.

معظم ما نحب وما نكره، ونحن في سن المراهقة، يكون متأثراً، إلى حد بعيد، بما كنا نحبه أو نكرهه ونحن أطفال. ومهما تعدّلت عواطفنا ورغباتنا، تظل ذكريات الطفولة في الحب والكراهية أساس تصرفاتنا.

ولما كان الإنسان – في طفولته – غير واعٍ الوعي الكافي لأن يحب ويكره بإرادته وفكره، كان الحب والكره عنده مرتبطين بالحب والكره عند

والديه، اللذين هما مثله الأعلى. وهكذا ينمو الطفل وفي نفسه انطباعات عن عادات وعن أهواء والديه، متمثلة في تصرفاته، فإن بقي خاضعاً لها، ولم يستطع التحرر منها، ظل عبداً لأهواء والديه القديمة، محكماً عواطف غيره، وليس عواطفه، في الحب والكره، وفي تثمين الأشياء أو تفضيلها أو رفضها. فإن أحب المراهق فتاة طلب منها صفات ربما لا يحبها هو، وإنما يذكر أن والده كان يتطلبها من المرأة دوما! وهذه مشكلة تسبب للمراهق عقبات كثيرة في حياته.

وحجة المراهق في هذا الارتباط بوالديه، الذي هو ارتباط لا إرادي، أن الوالدين هما أول معشوق للطفل، فالأم، مصدر الحليب، غذاؤه، هي أول معشوقة. إنها تجسد السعادة والحب. ثم يأتي الأب – مصدر مالية البيت وسيد شؤونه – وهو يجسّد الرجولة والنضوج، فيظل فكر الطفل، إلى أن يصبح غلاماً ثم مراهقاً، صدى لصورة الوالدين، مع ما يمثلان من مثل وقيم، بالنسبة إليه.

والطفل الذكر عادة يتعلق بالأم، مثلما تتعلق الطفلة بالأب، وهكذا تكون صورة أمه مقياساً للبنات اللواتي يحب المراهق إن صادقهن، وتكون صورة الأب مقياساً للشباب الذين تقبل المراهقة بالخروج معهم.

وقد أجرى كارل بيرسون اختبارات متعددة، خلص منها إلى نتيجة في غاية الطرافة، وهي أن لون عيني الزوج والزوجة متشابهان في أغلب

الأحيان، وذلك راجع لأن الشاب يتزوج عادة من فتاة لها لون عيني أمه، ولون عيني الأم ينتقل إلى عيني الابن بعوامل الوراثة!

وارتباط المراهق مع أبيه أو أمه، في الرأي والذوق على الأقل، لهو دليل على أن مراهقاً كهذا لا يزال يعيش في حضن والديه، بالرغم من بلوغه سناً تفرض عليه الاستقلال. وهذا سبب كبير من أسباب بقاء الكثيرين من شبابنا في حياة العزوبية. إذ أنهم يرسمون صوراً للفتيات اللواتي يقبلون بالزواج منهن، تكون على الغالب شديدة المثالية. فلا يعثرون على مثل هؤلاء، ويفضلون الانتظار... الطويل أحيانا.

ج- التعلّق بعضو واحد من جسم المعشوق:

عندما يتعلق الولد بأمه يتخذها كصنم يقوم بعبادته، ولا يحيد عن منهاجه. وبعض الصغار يتعلق بأشياء أخرى، غير البشر، والأمهات والآباء. إنهم يتعلقون بأعضاء معينة من جسم الإنسان، فيعجبون بها ويتمسكون بذكرياتها فيهم. فلما يبلغوا سن المراهقة تظل آثار هذه العادة فيهم، فيحصرون اهتمامهم، في عشيقتهم من الجنس الآخر، في ذلك الجزء من جسمها الذي يفضلونه على غيره. وبذلك يتحجر حبهم وينحصر أفقه؛ فبدلاً من أن يحب المراهق روح وصفات فتاته، كما هي عادة المراهقين، يصبح حبه مادياً، ومنحصراً في جزء صغير من جسمها.

إن أساس هذا التعلق بالأشياء الجزئية ذكريات منسية من عهد الطفولة، وتنطوي هذه الذكريات أيضاً على تقديس أشياء أخرى تتعلق بها؛ فيتحول المراهق من الإعجاب الشديد بيد، أو رجل، أو صدر، أو شعر، إلى إعجاب أكثر بما يرافق هذه الأشياء، بقفاز، أو حذاء، أو منديل، أو دبوس، أو خصلة شعر، الخ..

والإعجاب – بحد ذاته – ليس مشكلة، ولكنه يصبح قضية خطيرة، ومشكلة تستوجب العلاج، لمّا يتطور، فيؤثر على حياة المراهق، وما بعد المراهقة أيضاً، تأثيراً كبيراً. إذ أن بعض المعجبين بالأرجل، مثلاً، يقودهم إعجابهم إلى أن يشتغلوا، لما يخرجوا إلى عالم العمل، ببيع الأحذية. أما المعجبون بالصدور فيشتغلون خياطين، الخ...

ويكون الفتى والفتاة، في سن المراهقة، كالبدوي الذي يدخل المدينة لأول مرة في حياته. فكل شيء فيها يستحوذ إعجابه، وينال استغرابه الشديد. ويبدأ يقارن كل شيء يراه بأشياء بسيطة عالقة في ذهنه. كذلك المراهق، يكون معجباً بشيء ما، أو عضو ما في الجسم؛ فيقيس كل فتاة يراها من زاوية ذلك العضو، ويتغافل عن باقي صفاتها، وباقي أعضائها.

ولما كانت الفتيات يعرفن هذه الصفة– أو هذا الإعجاب الجزئي– في بعض المراهقين، لذلك يحاولن إغراء المراهق بإبراز ذلك العضو فيهن، بحيث لا يعود يهتم بباقي النواقص التي قد تكون موجودة فيهن. فبعض الفتيات يعرفن أن نوعاً من المراهقين تعجبه طلاقة اللسان والفصاحة،

لذلك يحاولن – أمامهم – أن يتكلمن عن المواضيع الأدبية، وبأساليب فنية، حتى يعتقد الشباب أنهن أديبات ناضجات. وبعض المراهقين يعجبون بالثياب والملبوسات الفاخرة؛ لذلك تضطر الفتاة، التي تسعى إلى إغراء واحد من هؤلاء، إلى العناية بلبس أفخر الأثواب، وهكذا قل عن باقي أشكال هذا الإعجاب الجزئي.

الفهرس

مقدمة ٥

الفصل الأول

الغريزة الجنسية في الطفولة ٩

الفصل الثاني

المعرفة الجنسية لغير البالغين ٢٣

الفصل الثالث

على أبواب البلوغ .. أول مظاهر سن المراهقة ٤٦

الفصل الرابع

الفتاة على أبواب البلوغ ٦٨

التمهيد للعادة الشهرية ٦٨

الفصل الخامس

المراهقة .. عهد براءة وسذاجة ٧٥

الفصل السادس

أخطار المراهقة ٩٠

١- العادة السرية والاحتلام ٩٠

الفصل السابع

٢- حالات شاذّة ١٠٠

أ- الخوف من العادة الشهرية. ١٠٠

ب- مشكلة التلذّذ في التعرّي. ١٠١

ج- "الساديّة"- التلذّذ بتعذيب الغير............... ١٠٣
د- "الماسوشسمية"- التلذذ بالتعذيب الذاتي.......... ١٠٤
هـ- حب الجنس الواحد ١٠٥
و- الترجل في المراهقات والتخنث في المراهقين......... ١٠٦
الفصل الثامن
٣- الانحراف في الحب......................... ١٠٨
أ- النارسيسية أو عشق الذات.................... ١٠٨
ب- الارتباط الأعمى بالوالدين. ١١٠
ج- التعلّق بعضو واحد من جسم المعشوق............ ١١٢